كل شيء هناك له رائحة المحيط

أوادي حافظ

وجوه القمر الأربعة



وجوه القمر الأربعة

رواية

وجوه القمر الأربعة
طبعة 2022
رقم الايـــداع: 2022/5878
الترقيم الدولي: 978-977-821-256-3

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

أوادي حافظ

وجوه القمر الأربعة

رواية

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

حافظ، أوادي

وجوه القمر الأربعة: رواية/ أوادي حافظ

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٢

١٠٤ ص، ٢٠ سم

تدمك ٣-٢٥٦-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٥٨٧٨

الإهداء...

إلى حليمة... أحبها فوق المحبين حبًّا، من حليمة ستي لحليمة شقيقتي، اسم النسوة التي تحمل رفقًا وعطفًا وإحسانًا، صلة الرحم ابنتي حليمة قنديل ليالي المظلمة، المليئة بنظرة عيونها التي تراني في العتمة، بقناعة بدائية أنه لم أقل حتى وداعًا في رحيلي... إلى حليمة

في قلب المحيط الهندي، وعلى الجهة الجنوبيّة من خط الإستواء، تقع جزر القمر شرقي خط غرينتش، يسودها مناخ حرجي[1]، وتغطيها المسطحات الاستوائية من أشجارٍ مثمرةٍ، ونباتات نادرة فوّاحة، وقمريون يغمسون أقدامهم في مياه المحيط..

كل شيء هنا له رائحة المحيط..

1- حرجي: تعتبر المناطق الحرجية والشجيرية من المناطق التي تتمتع بموقع جغرافي ممتاز، لنمو الأشجار بها.

1

كثمرة مانجو يانعة فوق شجرة مثمرة، نضجَ قرارُ **جعفر** بأن يودِّع ولاية «**صُور**» على الساحل الشرقي لسلطنة عمان، بعد أن قضى في ربوعها سنين صباه وبعضًا من سنوات شبابه، وحتى أصبح بطلًا في قيادة السفن الشراعية، ليعود إلى مدينة ميلاده «**ميسامهولي**» شمالي جزر القمر، بعد أن بلغه نبأُ موت والده إثر إصابة قاتلة من سمكة «السيلاكانت» النادرة، رغم أنه كان بحارًا ماهرًا وصيادًا قديمًا من أولئك الذين يرتبط مصدرُ رزقهم بالبحر المحيط، وتقودهم موجاته حتى تلامس أقدامهم الأرض القمرية.

انتقل **جعفر** فوق فرع من فروع الزمن ليعيش مع جدته «**فطمة**» أم والدته، وشقيقته الكُبرى «**موناعرفة**» التي اختارت البقاء مع جدتها بعد وفاة الأم قبل أن تبلغ سن المراهقة، وحتى أصبحت صاحبة دار العائلة بعد «زواجها الكبير»[2].

عاد إلى داره الأولى ليكتنفه ظلّ العائلة الوارف، الذي حُرِم منه لسنوات عديدة خلال فترة إقامته في صور بحثًا عن حياة جديدة لا علاقة لها بحياة الجزر وتقاليده، وكان رفضه العودة وغيابه

2- الزواج الكبير: الزواج المتعارف عليه اجتماعيًّا، يمكن إتمامه في سن مبكرة وحتى الشيخوخة (اسمه العادة)، وهو نقلة اجتماعية للرجال والنساء.

المتواصل سببًا في قطيعة بينه وبين أبيه الذي أراد دومًا أن يعود ابنه إلى أحضان عائلته ليسترد طبيعته القمرية البدائية، ويتخذ مكانه كرجل ذي شأن داخل العائلة الكبيرة.

وما إن عاد جعفر إلى دار عائلته، وتلاقت أنفاسه بجدران منزله، حتى امتد حضوره إلى أركان الدار وأفرادها وتبدلت أحوال الجميع، حتى إن نبرة نساء الدار قد تغيّرت بهجة لوجوده، النبرة الصوتية التي تعتمد على نغمات السلم الموسيقي القمرية البدائية المتآلفة، التي لا تقرأ ولا تكتب. تلك التي تُرقّي عواطف الإنسان القمري[3]، وتُنمّي إحساسه سواء بالبهجة والتفاؤل أو الجد والكآبة، بنغمات بدائية بلا أُسس لحنيّة تصاحب إيقاعها بأوزان الشعر وقوافيه، نبرة صوتية فيها ما يُشبه رقصَ الحروف فوق شفاه الناطقين. تنفتح الحناجرُ على مساحاتٍ صوتية متنوعة ومتماوجة، مثل هبوب الرياح، أو إيقاع آلة نفخ موسيقية ذات دبيب تشكّله حركة الحروف والكلمات والجمل، أو كالقرع على قطعة من خشب البامبو.

ظلّ جعفر، يومًا بعد يوم، يتفقّد المساحات الخالية والبيوت القديمة حول دار كوكو[4] يسترجع ذكريات طفولته الأولى، حيث ألعاب الصبا ومغامراته بين أقرانه، ومحاكاته لأصوات الطيور

3- القمري: نسبة لجزر القمر.
4- كوكو: دار الجدة.

واصطياد الثمار الساقطة من الأغصان. يستعيد الروائح القديمة والأصوات المنزوية في كل ركن قديم، يتشوّق لأن تتجسّد ذكريات الطفولة من جديد، كما كانت مشرقة مفعمة بالعُنفوان.

اعتادت أختُه «**موناعرفة**» أن تجلس إلى جواره لتقصّ على مسامعه أخبار مدينتهم «ميسامهولي» وكيف تغيرت أوجه الحياة فيها بعد سفره، وحين شرعت تحكي له عن خالهما الأصغر الذي تزوج «الزواج الكبير» كان هو شارد الذهن، يفكّر في سرٍّ قوة سمكة السيلاكنت التي تتنفّس بذنبها ذي الفصوص الثلاثة، ولونها الأزرق ذي البقع البيضاء، الذي ينعكس عليه ضوء القمر فيضيء كقطعة بلّور تحت الماء!

قالت **موناعرفة** إن الخال الأصغر سار على التقاليد القمرية، فتزوج «الزواج الكبير» في سنٍّ متأخّرة بعد نحو شهرٍ من رجوعه من «تنانريفوا» في جزيرة مدغشقر. فبدا أنه يحفظ تقاليد الزواج الكبير كأنه لم يغادر الجزيرة يومًا، لذا ارتقى مقامَ الضيفِ[5] في بيت أنسابه، وصارتْ له مكانة وحظوة لديهم، يلبون له ما تشتهي نفسه في سعادة ورضا، وصار -أخيرًا- رجلًا ذا شأنٍ، بعدما أدرك المعنى والغاية من العادات بفضل عمله في المناطق البعيدة، والتجارب التي خاضها، ومعارفه المتنوعة بالجبال والبحار والأشجار الخضراء الظليلة المزهرة.

5- الضيف: يظل يسمى بالضيف المؤقت، حتى إتمام الزواج.

وظل جعفر يحاول أن يبدي اهتمامًا بما يسمع، فقد كان يقظًا لمحاولات أخته المتواصلة أن تحبب إليه عاداتهم التي نسيها وتمرد عليها، إذ كانت تعلم أن تمرده ونزوعه إلى خارج تخوم الجزر بعقله هو ما جعله في شقاق دائم بينه وبين أبيه. وبينما كانت تواصل حديثها بحماس، كان الصمتُ يكتنفه، ويحتويه شروده، مستغرقًا في غيابه، كأنه يبحث عن لغة يستطيع من خلالها التواصل مع الطيور التي تحلق في الأفق فوق رأسه، والنباتات التي تلقي بظلالها في كل مكان، ويتأمّل المرتفعات الجبلية الشاهقة، المعشوشبة، كثيفة الخضرة، والعصافير التي تتنقّل بين أشجار المنغروف المتناثرة فوق الصخور البركانية داخل الغابة الاستوائية التي تتآلف مكوناتها في لوحة فنية بدائية، تثير في نفسه الأسئلة، وتراكمها إلى أسئلة أخرى لم تغادره منذ سنوات الطفولة!

وحين يخرج ليسير في الطرقات القديمة، يتفرّس نساءَ الجزر بابتساماتهنّ وإشاراتهنّ ونظراتهنّ التي تعكس بهجتهنّ برجالهنّ الذين يكابدون مشاق الحياة ليصيروا ذوي شأن ومكانة. تلتقي عيناه بعيني جارته **مونامينة** عَرضًا، فيغشاه عطرها الفوّاح، ونظرتها اللامعة، وضحكتها الصافية تدعوه إلى جنتها دون كلمة منها، تظهر وتختفي كأنها حلم بعيد، إلى أن يعود ذات يوم فيُفاجأ بوجودها في دارهم، تتحدث مع موناعرفة حيث الصديقات المقربات، فيبادلها التحية ويتحدث إليها، فيقع

في غرامها، وتصبح شمس نهاره وظله.

يتقاربان، ويجد كلٌّ منهما في الآخر ضالة فؤاده. فحين تصمت الألسنةُ تتهامس القلوب بلغتها الملغزة. وسرعان ما أصبح كلٌّ منهما يقرأ من كتاب الآخر. سألته **مونامينة** بجرأة مراهقة بدائية:

- **ما سرّ صمتك الدائم؟**

- **إن ذُعر سمكة السيلاكانت يدفعها للاحتفاظ بالبيوض داخل جسدها حتى تنمو وتفقس قبل إخراجها مباشرة..**

لم تفهم **مونامينة** ما أراد قوله على وجه التحديد، لكنها أدركت أنه مشغول الفكر بهذه السمكة دون أن تعرف السبب. قالت وكأنها تستذكر من كتاب استيعابها وإدراكها للأشياء والزمن:

- **هذه السلالة من الأسماك، هي كائنات ليلية تختبئ في كهوف بعيدة تحت الماء نهارًا، وتخرج من مكمنها ليلًا لتنطلق بحثًا عن غذائها من الأسماك الصغيرة والحبّار والأخطبوط، ولديها طبقة كريستالية خلف قرنية العين التي تعكس الضوء تمامًا كالمرآة المصقولة، ما يشكّل إضافة أخرى لقدراتها في مياه المحيط المعتدل.**

2

في ظلال شجرة مانجو وارفة في حديقة منزل **مونامينة**، يجلسان تحت مظلة البهجة والطمأنينة، يقطفان من ثمر الشجرة صغير الحجم، ذي البذرة المكسوّة بلحم الثمر، بما تحويه من جنين نباتي يتم الاحتفاظ به ليُزْرع من جديد حين تتهيأ له ظروف النمو مرة أخرى، يتذوق جعفر ومونامينة من الثمر الشهي، دون خوف من التهاب تسبّبه حموضة الثمرة في بطانة جدار المعدة، تتلذذ مونامينة بمذاقه الطيب، وتقول:

- **هذه البذرة السمراءُ الطازجة تظل صالحة للزراعة، قبل أن تتحوّل إلى اللون الرماديّ عند تعرُّضها للبرودة، وعند زراعتها لا بدَّ من البحث عن منطقة خالية من تزاحم النباتات، كي لا تتسبب كثافة الأشجار في تظليل التربة ومنع الإضاءة اللازمة لحدوث الإزهار ونموّ الثمار، وكي لا تجف الأفرع الداخلية المظلّلة، فينخفض المحصولُ وتقلّ جودةُ الثمار.**

وتضيف «مونامينة» بكثير من الاهتمام، كأنّها تلقي محاضرة متخصّصة بين مجموعة تلاميذ ينصتون جيدًا:

- **يتكفّل المناخ بريّ الأشجار بمياه الأمطار الاستوائية، بعد أن تتعهد الشمسُ بتجديد التربة وإعدادها، فتنبت الفسيلة شجيرة من الحبّةِ الخضراءِ التي تنتمي لفصيلة البطميّات، وتظل الشجرة تبني أوراقها عامًا بعد عام، حتى تطرح ثمارها في العام الخامس، وبعد التلقيح والإخصاب، تنتج البذور بشكل طبيعي وتسقط الثمار الزائدة بعد نضجها، حين تنوء بحملها الأغصان الواهنة. ولا يملك القمريّون – حينئذ- إلا دعوة الله الجليل ألّا تتحوّل الشماريخ الزهرية إلى كتلة متزاحمة من الأزهار العقيمة التي لا تحمل ثمارًا.**

اعتاد جعفر، منذ وقع في غرامها، أن ينصت لكل ما تقول، كان يتعرّف على الأشياء من خلالها، كانت تحكي بحميمية المنتمي إلى تراب الجُزر، وحين تتحدث تدفع من يسمعها إلى الإنصات لما تقول.

شعر جعفر بـالنوّة[6] المبكّرة، فتحرّك نحو شجرة ليمون قريبة، وتناول ثمرة ناضجة وأزال قشرتها بأسنانه البيضاء، بينما كان خياله تائهًا في الجبال الخضراء والبحار الزرقاء، يحاول أن يستكشف تيارات السطح المحيطية الأساسية، وتلك العلاقة بين العصارة التي تقطر من ثمرة الليمون وذلك الإحساس الداخلي

6- هي ظاهرة مناخية يحدث فيها هبوب شديد للريح مما يُثير اضطراب البحر، وقد تشمل أمطارًا غزيرةً يتبعها سيول وارتفاع في موجِ البحر، وهي ظاهرة طبيعية مُرتبطة بتغيرات الطقس وفصول السنة.

التي يدفعه دفعًا حثيثًا نحو **مونامينة** والتفكير في «الزواج الكبير».

تسأله **مونامينة** عن سرٍّ حبّه لثمار الليمون، فيقول بحنين جارف:

- كنتُ في السابعة من عمري، طفلًا نحيلًا يقف أمام شجرة ليمون في محاولة لاسترجاع كُرة صغيرة علقت بين الفروع المتشابكة، كرةٌ مصنوعة يدويًّا من ورقة شجر «جوز الهند»، ذات ملمس مُغرٍ ورائحة تتوغل في مسرى الروح تتغير بمرور الزمن، حاولتُ تخليص الكرة من بين الفروع، ولم أقنط من تكرار المحاولة حتى نجحت في استرجاعها، وهنالك رأيت ليمونةً صفراءَ عالقة في طرف فرع خفي على ارتفاع يمكن أن تطاله يدي. تناولتُها وشرعتُ بفرك قشرتها طلوعًا ونزولًا على باطن اليد، حتى ظهر المِلحُ الخَشنُ الذي يشبه حبيبات مستحضرات التقشير، ضربتِ الشمسُ عيني فمسحتُ عليها بكفّي الذي يحمل رحيق القشرة، فتفاعل الحامض الذي يحوي زيتًا فعّالًا فانسالت الدموع من عيني حارقة ملتهبة. سرعان ما احتوتني الجدّةُ بين ذراعيها. فصرختُ بغضب طفولي: «ليمونة وحشة». احتضنتني جدتي مثل ليمونة تقي من حدّة الحساسية، وقالت: «هذه نبتةٌ ذات ثمرة بيضاوية، حامضة المذاق،

تنتمي إلى مجموعة حمضيات الفصيلة «السذابية»[7] وتحتوي على مطهّر رائع، ثم سألتني: تتذكّر كيف قامت الليمونة بتنظيف اليدين بعد تناول السمك؟ تلعثمتُ وقلت: «أحبُّ الليمون الأخضر، لا الأصفر؛ فقالت إنه الليمون الذي يستخدمونه في حالات الحُمّى وارتفاع الحرارة وتصحيح التوازن الهرموني، وزيادة إدرار البول، ومقاومة السموم، وطرد الديدان والغازات، والعفونة المعوية». وحين تسارعت ضربات قلبي وشعرتُ بتقلصات، أسقتني عصير اللّيمون فتجرعته ونعستُ على سرير الأحبال، ودائمًا ما كان هذا السرير يذكّرها بفضل ثمار الليمون، الذي استخدموه في ما مضى كدواءٍ من أوبئة الكوليرا والتيفوئيد في طفولتها. نقلتني من سرير الأحبال إلى داخل غرفة بها سرير ذو ناموسية بيضاء، ودعكتْ ليمونة فوق أثر الحبل الذي انطبع فوق ذراعي اليسرى أثناء نومي وترك علامة دامية، انعكست صورتُها في حلمي فاستيقظت مفزوعًا، وأنا أشعر بالمغص والرغبة في القيء، فأسقتني عصير ليمون مرة أخرى، لكي يطهّر الأمعاء ويمنع الإسهال». هكذا انطلقتُ بحثًا عن كُرتي اليدوية حول شجرة الليمون، وانشغلتُ بليمونةٍ صفراءَ تحوي لبًّا أكثرَ وأكبرَ، وكمّية عصيرٍ كبيرة جعلتها سهلة التقشير. تسلّمت الليمونة بالتقبيل والعضعضة، كطفل رضيع يستكشفُ لعبة غامضة. لكن

7- جنس نباتات طبيّة، له رائحة قوية خاصة. وهي تتبع رتبة الصابونيات من طائفة ثنائيات الفلقة.

الليمونة خلخلت سنًّا لبنيًّا، فسقط سريعًا دون أعراض ألم الأسنان المعتادة.

قالت **مونامينة** بنبرة ارتياح واضحة:

- **الليمون (يوريكا) هو أحد المهدّئات الطبيعية التي يمكن وضعها فوق الجروح لوقف النزيف، فهي تُعجّل التئامها وتقيها من التلوث، وتساعدها على الشفاء، تغسل مواضعها وتطهرها وتنظّف مجاريها. حين يُكتشف نقص في أحد إنزيمات الطفل البالغ، يساعده الليمون على التكيّف. علّمنا الكبارُ أنّ كلّ أنواع الليمون تمنع الإصابة بسرطان المريء الذي يتسبب فيه شرب الكحول. ومن ثم، حرصوا دائمًا على الإقامة إلى جوار أشجار الليمون التي تتعدّد أنواعُها، وتنمو في درجات الحرارة المتفاوتة، كل حسب نوعه، منها الموسمي، ومنها ما يطرح ثماره على مدار العام، الليمون هو الثمرة التي تشارك القمريين أفراحهم وأتراحهم، ودائمًا حاضرة في كل مناسباتهم.**

ضحك جعفر ضحكة طفولية بريئة، قال:

- **في ولاية «صور» تعلّمتُ أنّ الضيافة هي متعةٌ استثنائية لكنها مؤقتةٌ، واليوم علمتُ أنّها كحلم اصطياد سمكة «السيلاكانت» الكبيرة في المنام، تتفاوت التفسيرات من ضيافة لأخرى، مثل تفاوت تأثير درجة الحرارة على أشجار الليمون في أراضي المحيط.**

تجيبه **مونامينة** بفطرة الإنسان القمري البدائي:

- **أنا بنتُ العادات والتقاليد، التي تحملها صدور النساء القمريات وعقولهن، وينقلنها للأبناء والأحفاد جيلًا بعد جيل، فحين تفتح «ست الدار»[8] وهي تستتر خلف ناموسية سريرها الشفافة، «مرسوم السيرة الشفهية للعادات التي أجمع عليها القمريون»[9] منذ أجيال، فإنها تروي تاريخًا مكنوزًا، وتعيد بعثه في من حولها من فتيات ينتظرن سماعها بشغف وبهجة، ويتركن لخيالهن العنان، ويتوحدن مع حكاياتها وبهجة القمر الساطع وسحره. إنها الحكايات التي تلوّن أمامهن الطرق المتشابهة، فتساعدهن على الاختيار بقلب تنيره أضواء القمر المتسللة في غير ليالي الخسوف. إنهن يكتسبن نوعًا من الجمال الواقعي يمكنهنّ من استخدام فنّ الظلّ والنور لتلوين بهجة الحياة. هكذا تغدق عليهن عينُ الجدة الحارسة نفحتها القمرية، فتغلق «مرسوم السيرة الشفهية»، لتربّت ظهورهن واحدة بعد أخرى لترسلهن في منامات بعيدة، يحلمن فيها بأسماك «السيلاكانت» وقوارب الصيد والأمواج المتلاطمة، ويستيقظن في الصباح الباكر بطاقات جديدة تجعل ممارسة العادات فريضة في وجدانهن.**

8- الجدة صاحبة بيت العائلة.

9- مرسوم السيرة الشفهي: حكايات الأجداد الحكيمة والعادات والتقاليد أو الدستور الشفهي غير المكتوب، الذي يحكم المجتمع في الجزر الأربع.

3

تحوّلت النوّةُ التي شعر جعفر باقترابها، إلى مناخ ثائر، دون سابق إنذار، وكان ذلك إيذانًا باقتراب كارثة مناخية جديدة فريدة من نوعها!

اضطربت حركة الموج والرياح في شمال عاصمة الجزيرة الكبرى التي يعرفها القمريون بـ«مدينة الانفتاح»[10] ويطلقون على شواطئها «مرآة القمر».

علا صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، يصدح بآيات قرآنية، يجاوز صوت الضجيج والأمواج والرياح الموسمية القوية، في سماء العاصمة موروني التي تتميّز بأنها أول مدينة يقام فيها مسجدٌ جامع تُعقد فيه صلاة الجمعة على بُعد عشرين قدمًا من حدود البحر. وإلى جوار قاربٍ خشبيٍّ كان يعبر المحيط ذات يوم بعيد، إلى أن نُصِب قريبًا من المسجد رمزًا لحماية بيت الله من جنون أمواج المحيط.

يتجلّى صوت سماحة المفتي الشيخ «طاهر سيد أحمد مولانا آل جمال الليل» يطلق الدعاء والتسابيح ونداءات الاستغاثة، معلنًا

10- مدينة الانفتاح: هي المدينة التي ترعى النخبة الحاكمة بعد الاستعمار.

عن كارثة سقوط طائرةٍ في مدينة «ميسامهولي» على شاطئ «مرآة القمر»، فيوقظ النائمين في قيلولتهم من سكان المدن والقرى، ويجذب انتباههم ليتحلقوا حول الإذاعة الوطنية في محاولة لمعرفة ما يجري في الساحل، شمال العاصمة «مروني» في الجزيرة الكبرى، بينما انقلبت أحوال الطقس في أربع جزر كاملة.

***

خرج خال **مونامينة** الطبيب العام من داره يلقي أوامره لمن حوله قبل ركوب سيارة الإسعاف المتّجهة إلى شمال العاصمة، ويطلب من **جعفر** أن يرافق مونامينة في مركبة الدار وأن يتّجها معًا إلى مكان وقوع الحادث. يرتبك جعفر ومونامينة وينظر كلٌّ منهما للآخر، دون أن يتحركا من تحت ظُلة شجرة المانجو في ساحة الدار، وما إن تخرج سيارة الإسعاف وتختفي عن أنظارهما حتى يدنو كل منهما إلى الآخر، فتتلامس أيديهما شوقًا وولعًا ويتعانقان في أحضان ساخنة.

تبصرهما زوجة الخال، ست الدار، عبر النافذة، فتغالبها دموع الفرح. تسارع إلى هاتف قريب لتتحدث إلى والدة مونامينة التي تعيش في «مدينة الانفتاح» مع أمّها جدة «مونامينة» منذ عودتها من الغربة.

أنصتت أم مونامينة إلى زوجة أخيها عبر الهاتف، فالتمعت عيناها ببريق السعادة، ولمحتْ الجدة «كوكو» دموعها الحبيسة خلف سماعة الهاتف، فزغردت قبل أن تنقل ابنتها إليها الخبر، زغردت لتحتفي ببهجة منتظرة، تختزنها في صور ذهنية حول الزواج وترتيبات استقبال «الضيف الدائم» الذي يقيم بعيدًا عن مدينتهم بنحو نصف ساعة فقط.

***

حين خرجت **مونامينة** من غرفتها مرتدية بالطو الطب الأبيض، كانت آثار دموع ما زالت عالقة في مآقيها. لكنها كانت منتشية نضرة محمرة الوجنتين، تقدّمت من زوجة خالها، التي كانت قد أنهت مكالمتها الهاتفية، ووضعت السماعة، وتأهبت لاحتضان **مونامينة،** قبلتها قبلة حانية وربّتت على ظهرها مبتسمة، ووضعت إبهاميها تحت عيني مونامينة لتمسح ما تبقى من أثر للدموع، ثم رافقتها إلى خارج الدار حيث ينتظر جعفر.

رأتْ زوجة خالها خروجها إلى جوارها كأنه طقس خروجها من منزلهم كأمانة لديهم، يوم يُعْلَن زواجها لتكون صاحبة دار حقيقية. أبهجتها هذه الصورة المتخيلة، فرفعت يديها إلى السماء لتطلب من الله في محبّة أن ينشر البهجة ويكلّلها بالستر على دار مونامينة المستقبلية وضيفها الدائم لكي يصبح رجلًا ذا شأن.

انطلق جعفر ومونامينة بالمركبة، فطلبت منه تشغيل إشارات الإنذار والأضواء الأمامية. وحين تساءل جعفر مندهشًا عن السبب، أجابت:

- **ليرانا أهلُ الساحل الشمالي، وليعلموا أن الطبيبة التي تفتح دارها أمام الجميع، في أوقات الطوارئ والإجازات، صارت منذ الآن في حماية رجل ذي شأن، ولينتشر النبأ في الأرجاء كافة فيدعون بالرحمة على من مات، وبالشفاء للمصابين والمرضى، وبتمام الزيجة المباركة جريًا على ديدن العادات والتقاليد.**

شعر جعفر برغبة عارمة في احتضان مونامينة، وارتسمت أمارات الحيرة في أساريره، فقد كانت فكرة ممارسة طقوس العادات القمرية فكرة تؤرقه، بل ظنّ دائمًا أنه لن يتزوج على هذه التقاليد العتيقة، بل لم يكن يعتقد أن يقع في حب فتاة من موطنه، كان دائم الشعور بالحنق والرفض، يسعى دائمًا للتمرد. وها هو يستقبل فكرة زواجه بإحساس بمزيج مضطرب من السعادة والخوف، وسرعان ما تبادرت إلى ذهنه فكرة إخبار شقيقته **موناعرفة**، وتصوّر كيف ستستقبل هذا النبأ، وكيف ستطمئن إلى عودة هيبة العائلة بين أوساط الأهل والأقارب في الجزر الأربع، حين يشرع في مدّ جذور

عائلته لتلتقي بجذور عائلة مونامينة، والتقدير الذي سيحظى به آنذاك، وأسر لمونامينة بحقيقة شعوره.

تجمدت دموعها، ونظرت إليه بابتسامة خلابة أثارت رغبات خفية في أوصاله.

***

بلغا موضع الحادث، وشاهدا آثاره الكبيرة، شظايا متناثرة على مساحة شاسعة، وأشلاء متباعدة، ومصابين وحشودًا من السكان يتوافدون على موضع الحادث، أجواء ذكّرت جعفر بالحكايات التي سمعها عن انفجار بركان «كارتالي»، وتلك الغيمة الحمراء التي نشرها لتحجب صفحة السماء فوق الفوّهة، والشاطئ الأبيض، والغيوم الصفراء التي ظن أنها تكسو صفحة المياه فتغشى زرقتها الواسعة، والحمم البركانية التي كان يقذف بها البركان من فوهته السامة.

لكنه لم يترك ذهنه منشغلًا بتلك الذكرى البعيدة، بل انتشل وعيه قبل أن يقع في براثنها، ونظر إلى «مونامينة» وقد بدتْ في البالطو الأبيض طبيبةً ذات جلال وهيبة تؤدي مهامَّ كبيرة وحسّاسة. كان يعرف أنها تخرجت في مدرسة طبّية معروفة في مَرسيليا الفرنسية بعد دراستها علم وظائف الأعضاء والأدوية، وانتقلت بعدها للعمل لدى عيادة خالها الوالد.

لكنها بدت وكأنها المرة الأولى التي يراها، وقد اتخذت سمت الأطباء ذوي الخبرة والمسؤولين أصحاب القرار. فما إن وصلت إلى موقع الحادث حتى شرعت بمساعدة الدكتور **برنيت** وفريق عمله من التبشيريين الإنجليز الذين يعملون في الطوارئ الطبيّة البريّة، وقد توافدوا إلى موضع الحادث لإنقاذ المصابين وإسعافهم. ظلّتْ **مونامينة** تتحدث إلى الدكتور **برنيت** وخالها الطبيب، وتشرح لهما ما يدور. وكان من الواضح أن هناك عجزًا تامًّا في كلّ ما يتعلّق بالمرافق الصحية، ولم يكن هناك سوى بعض الوسائل المتاحة لتقديم الإسعافات الفورية، في محاولة استيعاب آثار الكارثة.

أعلن صوت الشيخ عبد الباسط عبر الإذاعة الوطنية عن غروب الشمس، تمامًا كما يفعل في نفس التوقيت من كل يوم، فاجتمع كبارُ الأهالي، الحكماء ذوو الشأن لينظروا في ترتيبات المهام الليلية وتوزيعها على الشباب لمواجهة هذه الكارثة، فكانت توصيتهم الأولى هي تكليف **جعفر** بمهام إدارتها، وتشكيل فريق عمل ميداني من الشباب، ليصير وسيطًا بين فرق التخصصات الطبية والأهالي والمسؤولين. وسريعًا تخلّص جعفر من دهشة المفاجأة وأعلن ترحيبه وقبوله بالمهام الموكلة إليه، وانتظر التوجيهات التي ستحملها إليه الطبيبة لتنفيذها ككبير لشعبة الشباب يأتمر بأمره الجميع.

تراجع صوت «عبد الباسط عبد الصمد» وارتفع أذان المغرب

وردد الجميع كلماته خلف المؤذن، وبعد انتهائه، علا صوت جعفر خاشعًا وجِلًا، ينادي بينهم كي يساووا الصفوف ويتلاحموا مثلما اعتادوا كقمريين كانت الوحدة مصدر قوتهم على الدوام، ثم ساد الصمت مع اختفاء صوت مزمار داوود وارتفاع أذان المغرب تدريجيًّا ليتواصل الجميع بالدعاء.

قال جعفر:

- **ليست لدينا دراسات فنّية أو هندسية يمكننا الاعتماد عليها لتنفيذ أعمال إنشاء أو تجهيزات ملائمة، لذا علينا أن نعمل وَفقًا لما هو متاح في دار الشفاء حتى نتمكن من عبور هذه الأزمة، ورفع روحنا المعنوية مرة أخرى.**

وأضاف جعفر بعيون لامعة يلمؤها الرجاء والأمل:

- **ليخفف كلٌّ منّا آلام غيره، وسوف يُشفى كلّ مُصابينا حين يكتمل البدر سنقوم بواجبنا وسنترك لأرضنا القمرية تضميد الجراح.**

يشرف جعفر على عملية إدارة الأزمة، تمامًا كما اعتاد أن يفعل الأسلاف في الحوادث المشابهة، يتحرّك من مكان إلى آخر بخفة وحيوية، يوزّع المهام على الشباب ويتابع تنفيذها، يعطي النصيحة لمن يطلبها ولا يتأخّر في تقديم المساعدة، يبعث الاطمئنان في قلوب الجميع، ويشيع روح المودة والتعاون، يشحذ طاقات الشبان، ويدفعهم لاستغلال ما لديهم من موارد،

حتى استطاع رفع كفاءة الشعبة بأقل إمكانات ممكنة.

مرّ الوقت سريعًا، واعتاد الشبان والأهالي التقلبات الطقسية الطارئة وألفوا العمل خلالها، حددوا أهدافًا واقعية يمكن التعامل معها بأذهان يقظة وفطنة، واستخدموا مهاراتهم لإنجاز مهامهم بنجاح، وساعدهم جعفر على التخفيف من الشعور بحدة الضغوط، خاصة تلك الضغوط التي يتسبب بها كثير من الشائعات والأفكار المربكة التي يتناقلها الناس في مثل هذه الأجواء. فيما استطاع الأطباء والعاملون في دار الشفاء بتوجيه من **مونامينة** مساعدة المرضى والمصابين وتخفيف شعورهم بالآلام ومقاومة المشاعر السلبية لاستعادة العافية والبقاء أحياء.

***

تأتي النفحة العليا في صوت شيخ الطريقة الشاذلية لتنقي صدور الأتباع والمريدين القمريين الذين يتبعون أحوال الطريقة وتعاليمها وأخلاق شيوخها، لا يلقي القمر بضوء في جهة من الجهات الأربع إلا وسقط على أتباع لهذه الطريقة، يحرقون البخور وينثرون العطور ويحيون الطقوس، حتى هؤلاء، صار جعفر بطلًا في أعينهم.

بعد صلاة العشاء، خرج **جعفر** من مسجد الجمعة[11] برفقة خال مونامينة وأخيها **باسوكو** ليكون ضيفًا في دار الجدّة «دار العائلة»، وفي طريقهم إلى هناك أخذوا يتلقّون تحيات الأهالي ودعواتهم الطيبة، على طول الطريق بين البيوت ذات الأبواب والشبابيك المصنوعة من الأخشاب القمرية المتنوعة، والأسقف المعروشة بسعف شجر الجوز والأغصان المتينة المترابطة والمتقابلة لكي تمنع تسرّب الأمطار إلى داخل البيوت، رغم حرص من يبنونها على ترك فتحات للتهوية في مواسم القيظ القمرية.

وقف الخال أمام بيت الشيخ أبو الحسن كفيف البصر. بيت ذو هيكل خشبي مقطوع من أخشاب غابات جففتها أشعة الشمس الملتهبة. يبدو من بعيد كأنه من الصفيح، حيث تغطيه ألواح الصلب المجلفن من السقف والجهات الأربع. يسأل الخالُ الشيخَ «أبو الحسن» أن يدعو له ولعائلته في هذه الأيام العصيبة، فيأتيه صوت الشيخ «أبو الحسن» يردد:

- **يا حظَّ مَن كان شاهدًا على العشق.. فتياتنا لا يسلِّمن أنفسهنّ إلا برضاهنّ، فهو من أهل المحبّة وليس ممن غربت الشمس وأخذت بهجتهم، مَن أحبَّ من فتياتنا ليس أمامه إلا طريق العادة[12].**

11- مسجد الجمعة: المسجد الكبير الجامع في المدينة، والذي تقام فيه صلاة الجمعة.
12- العادة: نسبة إلى الزواج الكبير.

استراح بالُ الخال، وشعر بسعادة من استيقظ من حلمٍ جميل في منامه رأى فيه نفسه وقد اصطاد سمكة سليكانت كبيرة، فظنّ -مثل كلّ أهل الجزر- أن كنزًا كبيرًا ينتظره، ومضى بمن معه حتى تلاشى دبيب أقدامهم في سكون الليل. بينما بقي الشيخ أبو الحسن يجلس حول مائدة زوجته الستّ زهرة يتناول العشاء، يدعو في سريرته لإتمام زيجة جعفر بمونامينة، وتذكّر يوم تمت زيجته بالست زهرة. تعرّف بها في إحدى جولات الذكر التي كان يقوم بها في البلدان والمدن المجاورة، ومن بينها مدينتها «يوماكيلي» في جزيرة مويلي. حينها جاءته الست زهرة تشكو إليه طلاقها من زوجها لأنها عقيم لا تنجب، وطلبت منه البركة. لكن سرعان ما تآلف قلباهما، وتعانقت رغباتهما، وانتشرت حولهما ابتسامات الرضا والسعادة والمشاعر الحقيقية غير الزائفة، حين اكتشف كلٌّ منهما جوهر الآخر ونقاء سريرته، صارت الست زهرة عين بصيرته التي استعاض بها عن نور بصره. أسرّ لها بمكنونه فخفضت له جناح الرغبة والاشتياق، قال:

- **ليصفُ بالك يا زهرتي؛ وجهك جذّاب لنور الخير ورزق المحبة الصافية، رزق إخوتك بما يحتاجون ليواسي قلوبهم البريئة! فأجابت:**

- **يزيد حنانك لزهرة وأهل زهرة، ويبارك في عمرك لأجلي!**

4

استقبلت نساءُ دار مونامينة **جعفرَ** بحفاوة بالغة، لكنها حفاوة مكبوتة تتلاءم مع طبيعة الأحداث التي تسببتْ بها تقلبات المناخ، وبدأت مراسم الضيافة بتعارف بين أفراد الدار وضيفهم الجديد، وشاعت أجواء الألفة بين الحكايات التي تتواتر على الألسنة، تعالت الضحكات الباشّة، وجاءت النسوة بأطباق الطعام، وشيئًا فشيئًا، ذاب ما بقي في نفس جعفر من خجل وحيرة وتردد، حتى بدا كفرد أصيل من أفراد العائلة.

وحين سألته إحداهن عن عمله في ولاية صور العمانية قبل عودته إلى الجزر القمرية، قال إن بعضًا من أصدقاء والده المهاجرين، دبّروا له فرصة للعمل بعد حصوله على شهادة الثانوية العامّة هناك، حيث التحق بالعمل في منظّمة دولية تختص بالحفاظ على بيئة الغابات، وصيانتها من مصانع الأخشاب العاملة في تصنيع القوارب البحرية التي يمتلكها رجال أعمال إقطاعيون فارسيون. كانت المنظمة تعتمد نظامًا لقطع الأشجار بشكل منظم يحافظ على إنتاجية الأخشاب المستدامة. حيث تجزّ الأشجار في مساحة محددة من الأرض وتعيد زراعتها سريعًا بفسائل جديدة بأسلوب بيئي علمي، ومن هذا العمل تعلّم كيف يحافظ على استدامة الشجرة بطريقة علمية.

فيما قال **باسوكو**، الأخ الأصغر لمونامينة متفاخرًا، إن نظامهم القمري يعتمد على الأشجار التي تفقد أوراقها دوريًّا لتتحلّل إلى سماد طبيعي يُغذي التربة، ويحافظ على خصوبتها لتبقى نباتاتها سريعة النمو ذات أغصان مورقة تلقي الظلال فتحافظ على درجة حرارة ثابتة للحيوانات البرية، وتبقى الغابات ملجًا مناسبًا لنموها، إنه نظامٌ طبيعيٌّ صارمٌ في مواجهة الجفاف وفقر التربة.

لكن سرعان ما تستدعي حكاياتُ الغابات والقوارب والأخشاب، ذكرياتٍ بعيدة في عقل الجدّة **فَطمَة**، كبيرة العائلة، صاحبة الحكمة والمشورة، لتسرد قصتها مع قطعة الخشب التي أنقذتها من الغرق في أعماق البحر المحيط، حين كانت قادمة من مدينة مومباي الهندية، قطعة الخشب التي قذف بها الموج لتتعلق بطرفها، تتذكر ملمسها ورائحتها، وتعاريجها المستوية. كانت تنتمي إلى ذلك النوع الذي يستخدم في صنع القوارب الشراعية والقوارب التي تسير بالتجديف اليدوي، لا بدَّ أنها خشبة كُسرت من أحد ألواح قارب قديم متهالك يربض في مرسى القوارب المتهالكة على أطراف الشواطئ بعد أن أحيل إلى التقاعد، ربما تمهيدًا لتقطيعه إلى ألواح خشبية يعاد استخدامها من جديد كقطعة خشب تسقف قبر الميت، أو ربما يستخدمها الأطفال في ألعابهم البحرية، من ركوب الأمواج وصناعة نماذج السفن الصغيرة.

روتِ الجدةُ الحكاية، وهي تلملمُ طرف فستانها المشجّر المُغطّى بـ«ليسو»، قطعتين من القماش القطني المشجّر إحداهما تُغطّي الرأس والصدر والثانية تُلبس فوق البطن إلى تحت الركبتين. تستطرد وقد أخذتها الحكاية وألقت بها في غياهب ماضٍ بعيد:

- **غلبني الماء بعد أن غرقت السفينة العمانية العملاقة، سفينة غير تلك التي ترونها الآن.. حين غرقتْ أحدثتْ دوامات مائية كبرى كانت تتّسِع فتبتلع كلّ ما حولها، لم أشعر سوى بصفعات الماء تضرب جسدي، وتحملني كوريقة شجر تتلاعب بها الريح. لكن يد الله أرسلتْ إلي لوحًا خشبيًّا لعله اُنتزع من قارب قديم، فتشبثت به كما يتشبث الطفل بثوب أمه وسط الزحام. ووسط البضائع الطافية وبقايا الحطام، حملني لوح الماء باتجاه الشاطئ البعيد.**

حكتِ الجدة ما أسعفتْها ذاكرتُها على استدعائه من ذلك اليوم البعيد، ولم يكن جعفر وحده مَن استلبته الحكايةُ وبدا أثرُها في نظرته الساهمة، على الرغم من أن تلك لم تكن المرة الأولى التي تقصُّ فيها الجدة هذه القصة على مسامع بقية أفراد العائلة، فقد استمعوا إليها جميعًا بدهشة المرة الأولى وشغفها. لكنها كانت المرة الأولى التي تسيل فيها دموع الجدة رغمًا عنها، وهي تطيل النظر إلى البراح البعيد عبر النافذة القريبة، وتقول بأسى إن ذلك اللوح الخشبي الذي منحها الحياة وانتشلها من حافة الموت، لعله

الآن يلاصق لوحًا آخر في قارب من قوارب الأحلام التي تحمل شباب الجزر الحالمين بالعالم القابع هناك على الجانب الآخر من المحيط، فتصل بهم جثامين منزوعة الأرواح، تتلقفها أيدي الغرباء وتُخزِّنُها في ثلاجات الموتى، بعد أن تقدّر أعمار أصحابها وتعطي لكل منها رقمًا، وأسبابًا طبية للموت، ولن يكون السبب سوى الغرق في محاولة لعبور المحيط.

***

اقتربت مونامينة من جعفر وقالت بصوت سمعه الحاضرون بدرجات متفاوتة:

- **الشباب في دار الشفاء يحتاجون لآخر التعليمات قبل ذهابهم إلى النوم!**

دعته مونامينة لدخول إحدى غرف الدار ليعد نفسه للخروج برفقتها مرة أخرى لتفقّد الاستعدادات والتجهيزات الطبية، فاستأذن جعفر الحاضرين ومضى خلفها خارجًا من غرفة الاستقبال إلى غرفة «الضيف المؤقت»، وهنالك تمدد فوق السرير الوثير صامتًا، تلتمع عيناه ببريق النشوة. يتلقى كلمات مونامينة كنغمات هادئة تتسلل إلى مسامعه، تاركًا خيالاته الجموحة تحلق في فضاء الغرفة..

وحين خرجت مونامينة من غرفة «الضيف المؤقت» لمحتْ جدتُها فوق نهديها المستديرين علامتي استثارتها المبهجتين، فبادلتها ابتسامة ذات مغزى. بينما رأتِ الجدةُ في وجه جعفر، حين خرج في إثر مونامينة من غرفة الضيافة، ما يشبه الإشراقة المفاجئة، كأنّ أثرًا من ضوء القمر ما زال مطبوعًا فوق ملامحه.

خرج جعفر يرتدي جلبابًا وطاقيّة قمرية يدوية الصنع، حاكتْها نخبةٌ من نساء الدار الماهرات واحتفظن بها من أجل مَن سيكون ضيفًا دائمًا لديهن ذات يوم. طاقية تتميّزُ بدقة إبرتها وخصوصية خيطها الكتان، واليد التي قامت بتطريزها. وقد كانت طاقية الضيف المؤقت إحدى علامات تمييز الضيف والمضيفين، تختلف باختلاف الدار. منها ما ينقش مطبوعًا بأسماء الله الحسنى، ومنها ما يطبع بجزء من آية أو رمز أو رسم بديع، وتستغرق حياكتها من أسبوع واحد وحتى عام ونصف العام، بحسب همّة ومزاج ستّ الدار القائمة على صناعتها. أمّا الجلباب فكان من قماش الكتان المائل إلى اللون الأصفر اللامع، يُطرّز من الجهة الأمامية من أعلى الرقبة والصدر وحتى جزئه السفلي، بلا جيوب أو ثنايا، يرتديه الضيف فوق سروال أبيض يجلبونه من مكة المكرمة.

وفي طريقهما إلى المركبة، طلبت **مونامينة** من **جعفر** أن يستقلّا مركبة بيت الجدة، لكي يراهما كل من لم يعرف بعد بأمر زواجهما من أهل الجزيرة، وكي يقتلا الشك في قلوب المرتابين.

فأجابها جعفر:

- **إنني أنتعل صندلًا جلديًّا من جزيرة «زنجبار» بتنزانيا وهذه المركبة تسير مثل تيارات المحيط المائية، تتأرجح كأنّ الرياح تدفعها في كل الاتجاهات، سيعوقني حذائي عن قيادة هذه المركبة.**

انفجرتْ شفتاها بضحكة ساحرة، بدت من خلالها أوتاد فمها ناصعة البياض، فيما بدا اقتناعًا منها بما قاله. لكنها لم تعلّق بكلمة، واكتفت بهمهمة خفيضة. وما إن اتخذت المركبة سبيلها على الطريق العمومي وتجاوزت نحو مئتي متر، حتى تعطلت فجأة، وتوقّف محركها عن العمل، فيما خُيل لجعفر أن سبب العطب الذي أصابها هو «الصندل» الزنجباري الذي يضغط به على الدواسات. في نفس اللحظة أسقطتِ الرياح –بغتةً- شجرة جوز الهند كبيرة فأغلقت أمام المركبة مسار الطريق، فتبادل جعفر ومونامينة نظرة خوف واندهاش، تحوّلت إلى نظرة امتنان وسعادة، بعد أن شاء لهما القدرُ أن تتعطل سيارتهما قبل موضع سقوط الشجرة بعدة أمتار قليلة.

سارع إليهما عددٌ من شبان كانوا قريبين من موقع الحادث، وخرج جعفر هادئًا رصينًا، يطلب منهم نقل الشجرة بعيدًا عن مسار الطريق، وبحث في صندوق المركبة الخلفي عن آلة تساعده

في قطع الجذع الكبير. عثر على بلطة حادة ربما كانت تخص أحد أفراد عائلة مونامينة. وحين شرع في استخدامها، أظهر مهارة فائقة أثارت إعجاب مونامينة وبقية الشبان المحيطين بالمركبة، وفي دقائق قليلة كان قد تمكّن من تقطيع الجذع إلى أجزاء يسهل إزاحتها عن الطريق. وقبل أن يعود إلى المركبة، وضعت مونامينة قطعة الـ»ليسو» التي كانت تنسدل فوق كتفيها وسترت بها صدرها العارم، خوفًا من الحسد. نزلت بدورها من المركبة تتفقّد الشبان لتتأكّد أن أحدًا منهم لم يُصب بأذى جرّاء الحادث. مسحتْ عن كفّي جعفر غبارَ الأشجار والأتربة، ففاحت رائحة عطر العروس في أنوف الشباب كأنّها تفوح من باقة زهور «إيلانجي لانجي» تختبئ تحت ردائها إلى شغاف قلوبهم.

سارا باتجاه شاطئ البحر دون اتفاق. تركا حذاءيهما فوق الرمل، ومضيا يتحسّسان برودة الأرض لتسري في جسديهما رعشة منعشة، فتجدد شعورهما بالنشاط والقوة بعد يوم طويل من الإجهاد. يقول جعفر إن قصّة غرق الجدة ونجاتها بواسطة أخشاب قارب قديم قد أثارت في نفسه ذكريات قيادة القوارب الشراعية التي برع فيها حتى صار بطلًا من أبطالها. بينما سألته مونامينة كيف يندفع القارب الشراعي بقوة الريح، على الرغم من ضآلة حجمه ووزنه، قال:

- **يتحرك القارب عكس اتجاه الريح نتيجة قوة تنشأ على**

جانبي الشراع، وهذه القوة هي حصيلة قوتين، الأولى: قوة دافعة على الجانب المواجه للريح، والثانية: قوة سالبة على الجانب المعاكس، وكلتاهما تعملان في نفس الاتجاه، وعلى الرغم من أن القوة السالبة هي الأكبر، فإنها تتسبب في سرعة تدفق نسبة تيار الهواء الحر المحيط بالقارب، وتسبب نقصًا في الضغط في ذات المكان الذي يحدث فيه التدفق الأسرع على جانب الشراع المضاد للريح، حيثُ تزداد سرعة الرياح فيؤدي ذلك إلى حدوث منطقة ذات ضغط منخفض خلف الشراع.

بدتْ مونامينة وكأنها لم تستوعب ما قاله بشكل كامل، عقدت حاجبيها وأطبقت شفتيها ولاذت بالصمت. اتخذ جعفر سمت معلم ثانوي، واستطرد في شرحه:

- **عندما تواجه الريحُ الشراعَ، فإن جانبًا منه يلتصق بالجانب المعاكس للريح، ولكي يتحرّك الهواء غير الملتصق، فلا بدَّ له أن ينحني إلى الخارج في اتجاه تدفق الهواء غير المتأثر بالشراع، ولأن تيار الهواء الحرّ يميل إلى الاحتفاظ بمساره المستقيم، فإنه يعمل حاجزًا، فيؤدي تأثير اندفاع الهواء الحر وانحناء الشراع إلى خلق قناة ضيقة يتوجب على الهواء بكتلته الأصلية المرور خلالها، ولأنه لا يستطيع أن يضغط نفسه، فإن هذا الهواء يزيد من سرعته لينحشر داخل تلك القناة. وذاك هو سبب في أن سرعة التدفق تزداد على الجانب المحدّب من الشراع.**

اقتربتْ **مونامينة** من **جعفر** حتى أصبح وجهها قبالة وجهه، لا يفصل بينهما سوى مسار ضيق يمر الهواء من خلاله، تفرّست ملامحه بإعجاب ووضعت وجنتيه بين كفيها، فضمها إلى صدره. غابا في جفجفة الهواء وهدير الأمواج وسرى دفء عناقهما في أوصالهما.

في مثل هذا التوقيت من الشهر القمري، لا أحد ينام بعيدًا عن حضن القمر، وتصير أخبار العشاق على ألسنة الناس، وتتكاثر قصصُ الحب القمرية التي تظهر في العلن مع بزوغ قمر الليلة الرابعة عشرة. في الأسبوع الثاني تنمو القصص وتتواصل في ظروف مناخية مواتية.

هكذا هي الحال في بيئة تمتاز بطبيعة عشوائية قمرية فريدة، تسود بهجةُ القمر عندما يدخل مرحلة بدر التمام، حينها يصير الليل شبيهًا بالنهار، الضوء المبهر والدفء المستعر. أجواء تدفع العشاق نحو شهوة الحرية والرغبة في ممارسة التقاليد للوصول إلى العادة، ليصير بإمكانهم أن يقيموا بيوتهم؛ بيوتًا حقيقية يصبح فيها الرجلُ صاحبَ الشأن والضيافة، بينما تصير زوجته ست الدار ومليكتها.

يهمس جعفر في أذني مونامينة:

- **ما زلتُ حين أعاود النظر في عاداتنا القديمة، أشعر**

بغرابتها، ولا أرى سببًا في استمرار أهل الجزر في الاحتفاء بها والحرص عليها.

تتغيّر ملامح مونامينة. ترتسم على وجهها أمارات العبوس، تبدو كمصدومة، تجيبه:

- **إذا أردتَ التراجع، فافعل! لا أحد يطالبك بأن تفعل أي شيء ضد إرادتك!**

يدرك أن عبارته آلمتها، يحاول التراجع، ويرد سريعًا:

- **أنا لم أقل شيئًا من هذا!**

تُلقي مونامينة الوشاح الذي يغطي كتفيها، وتشيح بوجهها، تقول بنبرة تعمّدت أن تكون حادة واضحة:

- **هل تعرف هيبة الرجل ذي الشأن داخل الأغلبية المحصّنة[13]! أن تصير المتكلّم صاحب الرأي والمشورة، الشخص الذي يقبله وعي الإنسان القمري البسيط. الكبير الذي تتبعه عائلتان، ويصير مرجعية التلاحم بين أفرادهما. أنت تستحق هذا الشرف! العائلة هي عنوانك، أنت مِن بيتِ مَن؟ حين تكون سببًا في الجمع بين عائلتين تصبح أنت العنوان.**

13- الأغلبية المحصنة: هو وجيه مرموق في العادات والتقاليد القمرية المتعارف عليها.

أجال عينيه في السماء، واستلقى فوق الرمل الأبيض الذي جلته الأمواج ورصّعته الأصداف والقواقع. بسطت **مونامينة** تحته بساطًا من الأوشحة التي ترتديها، تأملته فشعرت بحيرته، وشعرت أيضًا بأن هناك ما يخفيه، ويؤرّقه. اقتربت منه، ووضعت كفها فوق جبينه، فأغمض عينيه مسترخيًا. لم يكن حولهما غير السكون. لا يراقبهما سوى أشجار الجوز السامقة خلفهما، ورائحة الرمل التي تعبق الأنوف، وأصوات الموج، والسماء التي تترصع بالنجوم الساطعة الشاردة، وثمة قطرات ندية تتساقط من سحابات تائهة في السماء الصافية. يمنحهما القمر ما يكفيهما من الضياء ليغادرا الشاطئ. بينما كان صوت نسائي آخر في دار مونامينة، يلهج بدعاء حار من أجلهما، بأن يكلل الشيخُ أبو الحسن، ذو المذهب الشافعي، عشقهما بعقد الزيجة الكبيرة، كان صوت زوجة الخال التي كانت تجلس إلى جوار **موناعرفة** أخت جعفر، تحكي لها عن أمنيتها البعيدة. وحين عادت مونامينة برفقة **جعفر**، اصطحبته إلى غرفة الضيف الدائم، وتركته يغط في نوم عميق.

5

استيقظ جعفر على صوت أذان الفجر، مفزوعًا كأنه خرج من حلم مزعج، قلّب عينيه في أرجاء الغرفة، وحين أدرك المكان ووعى لما حوله، شعر بالتوتر وتسلل إليه الخوف. انتبه إلى صوت الشيخ «أبو الحسن» يختتم تلاوة بضع آيات قرآنية، ثم يصدح صوته بالدعاء له ولمونامينة بإتمام البهجة ودوام المحبة، وأن يحفظهما الله من الشرور. انتبه **جعفر** إلى كلمات الشكر التي ساقها الشيخ لجدة مونامينة «ست الدار» على حسن تسليم أمانة النفحات، فأدرك جعفر أن الجدة قد استيقظت قبل الجميع وجاءت بالشيخ «أبو الحسن» من أجل هذه التلاوة لتبارك علاقته بحفيدتها، وأنها منحت الشيخ نفحة من المال في مظروف أبيض، لن يعلم أحدٌ بما يحتويه، حتى يفضّه صاحبه، وينال نفحته.

انتبهت **مونامينة** لقلق **جعفر**، فحاولتْ طمأنته، وأن يتمتع بالوقت الذي سيقضيه في دارهم كضيف له حق الضيافة، وحين سأل جعفر بكثير من الارتياب عما إن كان أهل الدار يعلمون ببقائها إلى جواره طوال الليل؟ قالت:

- **هذه الدار بُنيتْ أيام كانت الجدة الكبيرة شابة صغيرة.**

بنيت بالحجر الغشيم[14] الطبيعي. الحجر المصمت الذي لا يتسرّب الضوء أو الصوت من خلاله، فهو صخري يمتصّ رطوبة الماء، لأن الحديد وسيليكات الألمونيوم من بين مكوناته، لونه يميل للبني أو الأسود، لكنه غير موحّد ولا ثابت طوال العام، بل كأن له مشاعر ومجسات للإحساس، إذ يتبدّل لونه بحسب أحوال الجزر المناخية.

أخبرته **مونامينة** أن هناك بئرًا مائية محفورة خلف الدار، موصولة بأنبوب من الصاج المقوّى ينصرف منها ماء المطر المتجمع بعيدًا عن جدران البيت، وبعمق يتيح لمن يحتاجون إلى الماء من أهل المدينة أن يحصلوا عليه بسهولة، وهي طريقة استوحاها أهل الجزر في إنشاء الآبار بعد حادث بحيرة «نياماويي» شمال مدينة الانفتاح. إذ تقول الأسطورة إنه عندما رفض سكّان تلك الأرض أن يمنحوا ماءهم لساحرة عابرة سبيل، حوّلت الساحرةُ الأرضَ إلى غطاء مائي متّسع، انتقامًا من سكّانها، لكنها تركتْ عائلةً واحدة ساعدتها، صارت هي جذور عائلة **مونامينة**، وكانت على فطرة الطبيعة القمرية، حيث كانت ترى بأنّ على الجميع مساعدة المحتاج ليظلّ حيًّا، مهما كان سمته وطبيعته.

وأسرّ جعفر لحبيبته بأنه يظن أن قلق الجدّة كوكو من وجوده في المنزل إلى جوار مونامينة، ربما هو ما دفعها للاستيقاظ في

14- الحجر الغشيم: حجر بركاني لونه أسود.

هذا الوقت من الفجر، لتأتي بالمقرئ ليتلو الآيات القرآنية، فأجابت **مونامينة** بأنها لم يمر عليها أذان فجر واحد منذ طفولتها، لم تر فيه جدتها غير مستيقظة، تتواصل مع الله بمحبّة وتضرّع، لتبدأ بعدها رحلتها الصباحية مع إطلالة الزهور النديّة، تجمع الورود والنباتات العطرية الموسمية من المسحات المزروعة حول الدار، وتوزّعها على سراديب المنزل، وفي طيات ملابس أفراد العائلة وغرف النوم، وتشيع رائحةً خاصّة تتميّز بها العائلة على الدوام، وحين تذبل أوراق الزهور وتتداعى حول سيقانها، تعيد الجدة تدويرها لتستخدمها كبخور يطرد الناموس والحشرات الطائرة من حول الدار، تعيش حياة خاصة مع نباتاتها، عِشْرة من نوع خاص، كل منهما يستمسك بوجود الآخر، حتى إنها تنادي بعض النباتات البدائية التي تصنع غذاءها بنفسها بـ«أرملة البهجة»، وتغني للطيور الرابضة بين أشجارها وتتنقل بين أزهارها.

أطل **جعفر** عبر النافذة المشرعة، فرأى ضلفة الباب اليمنى مشرعة على آخرها، تراجع للخلف خطوات، اقترب من مونامينة، وأعاد النظر إلى ملامحها، فانجذب إلى حضنها دون مقدمات، وتسلّل إلى جسده دفء مشاعرها. لكن **مونامينة** لم تستسلم لحضنه تمامًا، بل سرعان ما استعادت جأشها، وقالت كأنها تهرب من بين ذراعيه في خجل:

- أبواب الدار ونوافذها تفتح صباحًا تدريجيًّا، وتغلق وقت غروب الشمس، لتسمح للنباتات المحيطة بنشر عبيرها في

أرجاء الدار، وتشيع مناخًا يبعث على السكينة والاسترخاء وتنفس رائحة «نور النبات» والأشجار، إننا جميعًا جزء من تكوين هذه الزهور، كما أنها جزء من تكويننا.

كأن مونامينة قد فتحت «دفتر العادات والتقاليد الشفهي الذي صدّق عليه القمريون بالإجماع» والذي تحفظ هي سطوره كما تحفظ اسمها، لكي تعيد على مسامع **جعفر** بعضًا من محتواه، في رحلتها لإعادة تأهيله وإمداده بما يجعله أهلًا لمكانته المنتظرة داخل العائلة. بينما ظل **جعفر** يستمع إليها كعاشق متيّم، يترقّب شفتيها حين تهمسان وعينيها حين تتطلعان إليه. يفتح قلبه لصوتها كما تتفتح الأغصان النضرة في مواسم الإثمار.

يسأل جعفر من جديد، برغبة صادقة في المعرفة، وشعور ثقيل بالخجل:

- **كيف أصبح ذلك الرجل ذا الشأن يا عزيزتي؟**

أدركتْ على الفور أن حبيبها قد قرّر أن يمضي في الطريق الذي حاول أبوه إعادته إليه لسنوات طويلة دون جدوى، كما حاولت أخته أن ترسم له معالمه وفشلتْ، فطلب منها مساعدته ليستعيد انتماءه وهويته، فاستقبلت سؤاله ببهجة عارمة، وغمرته بسيل من الأحضان والقبلات. لم يكن في حسبانه ردة فعلها. أخفى وجهه وأغمض عينيه، وجلس بين يديها ينتظر ما تجود به عليه

من نصائح، يتلقّف كلماتها بصدر رحيب، بينما هي تتحدّث بنبرة واثقة هادئة، كمعلمة في غرفة درس تلقي على تلاميذها حصص المعرفة، لتهيئ له سُبل فهم عادات الديار وتقاليدها، تحاول أن تتبّعَ أسلوب التعليم القمري الذي يقوم على التفاعل بين المعلّم والمتعلّم، لكي يُحفز الطلاب على فتح بصائرهم وقلوبهم.

تتحدث مونامينة، وينصت جعفر، فيتسلل النعاس من ثنايا حروفها وصوتها الرخيم إلى جفنيه. يغمض عينيه مسترخيًا. تمور في داخله الأفكار، كيف ينمو الإنسان القمري الصالح كنبتة «زهرة العصفور» المُعمّرة التي تعيش في فوضى الطبيعة بين الحشائش والأشجار، نباتات كثيرة مختلفة الطباع والطبيعة. تلك النبتة التي حين تترصّع بها باقة الزهور في الفازات المزخرفة لا تشعر سوى بانسجامها، تصير مثل النجوم المضيئة في ليل معتم، تتجدد معها الطبيعة القمرية.

***

في «دفتر العادات الشفهي المصدق عليه بإجماع القمريين» تبرز تفاصيل الأسبوع الثاني من الشهر القمري، وتتجلى أصالة العادات والتقاليد الحاكمة وقدرتها على السيادة في كل مكان؛ من الدور المتراصة في مدن الجزر إلى الساحات العامة وأماكن العمل، في ما يشبه اللوحة المتكاملة متناسقة الزوايا، وحين يلتزم القمري بهذه التقاليد، وتتأصّل اللغة القمرية على لسانه،

لغة «شيقموري[15]» في لهجاتها الأربع المشتقة من السواحلية والمتأثّرة بالعربية، حينها يحصل القمري على صك كينونته، بأنه قد صار قمريًّا بحق.

اللسان هو الضابط والمعيار، به يُنسب القمري إلى إحدى الجزر الأربع. الذين يتحدثون «شنجازيجا» فإنهم ينتمون إلى جزيرة «نجازيجا» عاصمة الجزر، أحدث الجزر من حيث الوجود الجغرافي. هي جزيرة أقرب إلى الجانب الذكوريّ من الطبيعة المتقلّبة بنار بركانها الناشط، وما حوله من غابات ممطرة. تتناثر نباتاتها على منحدرات جبل «كارتالا» البركاني، الذي تنعدِمُ فيه أي مؤشّرات تدل على نشاطه أو احتمالية تكرار انفجاراته. عندما يرتفع الضغط على المناطق الضعيفة في قشرته بسبب ارتفاع الضغط البخاري، تنبعث الغازاتُ الذاتية داخل الصهارة في باطن الأرض وتحرق القشرة الأرضية، وسرعان ما تنسج سحبًا من الرماد البركاني تغطّي مئات الأميال من الأرض القمرية. ومع كل ما يصحب الغازات المنبعثة والحمم المتصاعدة، تلقي الطبيعة شيئًا من عطائها، فتوفّر البوتاسيوم والأكسجين وثلة من المعادن المذابة، أهمّ عناصر التربة الزراعية عالية الخصوبة. تمنحه بمعدّل كبير يعيد للأرض حيويتها ويمدها بالقوة والحيوية، وتعوّض سطح الأرض بما افتقده بالتجريف وزحف الرياح والمدن، وتجدد القشرة الأرضية بالسائل الملتهب.

15- لغة شيقموري: اللغة القمرية الدارجة – اللغة المحلية.

يسمح البركان لقشرة الأرض أن تتخلص من الضغط، وأن تفرغ أثقال الأرض المكنوزة في طبقاتها السفلى، لتخرج إلى سطح القشرة وتعيد إليها قوتها وصلابتها، مع شعابها المرجانية البحرية وشواطئها البيضاء.

ومن يتحدثون لَهجة «شنزواني» فهم ينتمون –لا شك- إلى جزيرة «إنزواني»، الجزيرة الأكثر لينًا ومرونة، واستعدادًا لاحتواء كل جديد، كأنها أنثى الطبيعة، أو الطبيعة الأنثى. ترتفع في أطرافها سلاسل «سيما» الجبلية التي تستقبل الأمطار الغزيرة وتغذي بها الأنهار والكائنات الحية في بقية الجزر، وتملأ المستودعات والخزانات الطبيعية بالمياه العذبة التي تستخدم خلال فترة الجفاف في توفير إنتاج الغذاء والمحاصيل، وتقي الجزر من آثار الانزلاقات الطينية والفيضانات، إنها بمساقطها الجبلية ومخرات السيول التي تنتشر فوق جبالها، ضمان استمرارية البقاء وإمداد المياه.

بينما هؤلاء الذين يغلب على لهجاتهم نبرة «شيموالي» فإن أصولهم غالبًا ما ترجع إلى جزيرة «موويلي» أصغر الجزر القمرية. جزيرة تحيطها سلاسل الجبل والغابات الشجرية التي تخفّف من أشعة الشمس الملتهبة، وتحفظ ما على سطح الأرض

من كائنات حيّة من الاحتراق بالأشعة الساخنة. لا تسمح سوى ببصيص من الضوء يتسلسل وئيدًا إلى سطح الأرض لتتشربه الكائنات الحية، من البشر والنبات والحيوانات.

أما لهجة الـ»شيماوري» فتسود في جزيرة «ماوري» أقدم الجزر الأربع جيولوجيًّا، وأكثرها خصوبة من حيث الغلاف النباتي الذي يكتنفها من الجهات كافة. هي أكثر البيئات الحيوية صَفاءً ومَوَدَّة، مقارنة ببقية بيئات الدائرة القطبية التي تقع الجزر القمرية ضمن نطاقها، تتفرّد بتربتها بين بقية الجزر، مثلما تتفرّد بدرجة حرارتها المعتدلة ورطوبتها الحانية التي تضمن وحدة وجود القمريين.

تستكمل مونامينة حديثها، حول حياة الجزر وسكانها القمريين، تقول:

- **نحن في هذه البقعة الفريدة من المحيط الهندي، أشبه بمجموعة من الكائنات الحية النادرة، ننتمي من جهة إلى العالم الإسلامي الرحيب، ومن جهة ثانية نخضع لسياسات دولة أوربية كبرى تسيطر على سواحلنا وحدودنا وأجوائنا، سياسات تُقيّم الإنسان بالهالة التي تحيط به وتجعله أكثر نضرة وحياةً، وتُعنى بهؤلاء الذين يتمتعون بالصحة الجسدية والنفسية، من أجل استخدامها والاستفادة بها**

حتى تتبدّل إلى هالة واهنة ذات ألوان باهتة غير واضحة الحدود، ويصير الإنسان ذا بنية جسدية ضعيفة وصحة نفسية متدهورة.

تكتسي نَبْرة مونامينة ببعض الحدّة، كأنّها تكتم غضبًا بين ثنايا كلماتها، يلتزم جعفر الصمت، ليسمح لها بأن تكشف عما يختبئ في صدرها، لكنها حين تلاحظ انتباهه تستدرك أفكارها، وتخفض حدّة صوتها، وتستكمل حديثها:

- **قيمتُك لن تكتسبها إلا بعائلتك. أنت، مثل كل إنسان قمري، أشبه بـالكيرقة الصغيرة التي تسبح بحرية في مياه الجزر، حتى تستقر فوق سطح صلب في قاع البحر الدافئ، هنالك تكوّن لنفسها هيكلًا خارجيًّا، ثم تكبر بالانقسام إلى اثنتين، فتصير شعبة مرجانية، كائنًا يتسِمُ بقدر من قوة الاحتمال والمرونة، تتنقّلُ بقوة الأمواج، وتحفظ تنوّع الأسماك التي تختلف باختلاف الشعاب المرجانية ذاتها، حيث ترتبط كل منهما بالأخرى ارتباطًا عضويًّا، وتفرض الحيود المرجانية حالة نمو مستمرة، ترسخ -بدورها- لتنوع وترابط القمريين كأساس للحياة في الجزر.**

يجيب جعفر:

- **لقد أغـرمتُ بذلك التـفاعل المسـتمر بين جميع الكائنات**

الحيّة في المناطق الاستوائيّة المعتدلة. حالة تذكرني دائمًا بأيام طفولتي الأولى التي قضيتها أراقب تلقيح الفانيليا وأتتبع نكهتها.

تبدو الدهشة على وجه مونامينة، تتذكّر أنها ليست المرة الأولى التي يأتي فيها جعفر على ذِكْر «الفانيليا». تسأله عن سرّ قصتها، بشيء من الغيرة المستترة، فيجيبها بأنها ثمرة كانت تشبه إلى حد كبير حبة الفاصوليا الخضراء في عناقيدها المعلّقة، هكذا رآها للمرة الأولى وتعرّفَ إليها، حين أتيحت له فرصةُ اكتشاف عالم النباتات بحواسه الصغيرة، حين كانت عائلته تفلح قطعة من الأرض اليباب المجاورة لأرضهم لتوسيع رقعتها الزراعية التي ورثتها عن أجدادها. كان أفراد العائلة يحاولون استزراع نباتات كانت مهددة بالانقراض من أرض الجزيرة، وكان من بينها نبات «الفانيليا». جمع أفراد العائلة فسائل النبتة وتقاويها وبدؤوا في زراعتها ورعايتها في هذه البيئة ذات المناخ الاستوائي الذي يحفز على النمو.

قال جعفر إن عمره حينذاك لم يكن قد تجاوز العاشرة، لكن علاقة حميمة نشأت بينه وبين تلك النباتات التي رأى عائلته تغرس شتلاتها. ما زال يتذكرها ويتذكر زهور «الأوركيد» المتسلّقة، التي بدتْ له كأنّها تحمِل شفرة خاصة من طبيعة الأرض القمرية، وهي شفرة تبيّن له في ما بعد، أن أبناء برج «الحمل» الذي ينتمي إليه، يمتلكون قدرة خاصة على فهمها، كان

يراقب بجرأة وصراحة ودون خجل، كيف تنتقل حبوب اللقاح الناضجة من البؤرة النباتية إلى ميسم الزهرة نفسها ومنها إلى ميسم زهرة أخرى.

- **كانت هذه هي أول معرفتي بأن هناك من يشاركني الاهتمام بمراقبة عملية تلقيح هذه الزهور، تعلمتُ الصبر وعدم الصراخ والمشاجرة كغيري من أطفال الجيران والأقارب، حتى فاجأني الإخصاب الناتج عن اندماج النواة المذكّرة مع النواة المؤنثة داخل نفس الزهرة أو زهرة أخرى على شاكلتها. من الطبيعة شهدتُ أنواع تلقيح الفانيليا عن طريق مناقير الطيور التي تلقمها في أزهار النباتات. تقترب الطيور وتدس مناسرها الدقيقة، في تويج(16) الزهرة الضيق ذي الأعناق الطويلة، لتلتقط الحشرات الصغيرة داخلها، بينما تضرب أجنحتها الهواء كأنها معلقة إلى السماء بخيوط خفية، فتلتصق حبوب الطلع بالزغب الذي يغطي الرأس، وينتقل اللقاح من زهرة إلى أخرى حين تتنقل الطيور بين الأزهار. كانت تعجبني تلك النبتة التي تزهر مرة واحدة كل عام، وتخضع بشكل طبيعي لعملية التلقيح بوساطة عوامل خارجية غير ذاتية تتميز بها الطبيعة القمرية الخلابة وحدها دون غيرها من الأمصار والبلاد، كنتُ أمدّ يدي محاولًا ثني أصابعي واحد بعد واحد،**

16- تويج الزهرة: هو مجموع بتلات الزهرة النباتية وهي الأجزاء الجنسية في الزهرة.

ليساعدني على استيعاب ذلك «الذهب الأخضر». وكنت أدخل إبرة خشبية رفيعة بطريقة هادئة داخل كل زهرة حتى أقوم بتلقيحها وإثمارها، فصرت مُلقّحًا ماهرًا وكأنني جزء من هذه الطبيعة القمرية. تمر أسابيع بعد عملية التلقيح، إلى أن يتم تجميع أغلفة الزهور عندما يتحوّل لونُها إلى الأخضر الذي يشوبه الاصفرار. هنالك تبدأ مرحلة جديدة في تحضيره، هي مرحلة التقطيع والتصنيف. تُنشر الزهور تحت أشعة الشمس لنحو خمسة أيام متتالية تحت مراقبة النسوة وعنايتهن، بعدها توضع في ماء ساخن لعدة ساعات حتى تنضج ويتغيّر لونها، وخلال عملية التخمير كانت تتاح لنا الفرصة كأطفال لكي نرى حبات الفانيليا ونتلمسها بأطراف أصابعنا، ونتشمم روائحها الفواحة.

كانت النساء تتبارى في مساعدتنا، كل منهن تشرح لنا شيئًا من أسرار الفانيليا. إحداهن أخبرتني أنه يجب أن تظل الزهور ملتصقة بجذوع الأشجار كي لا تسمح لتيارات الهواء بإسقاطها على الأرض وإتلافها. وحين تنتهي مرحلة التخمير، تبدأ مرحلة جديدة لتجفيفها في الهواء الطلق، كي تتقلص الزهور وتكتسب قيمتها وتصير ذات لون بني رائع، كنّ يجففن حبات الفانيليا بعيدًا عن الشمس، داخل غرف خاصة مزوّدة بفتحات واسعة للتهوية، يبسطنها فوق أكياس الخيش المربعة على أسطح الرفوف الشبكية السلكية، وعند غروب الشمس ينقلنها إلى غرفة أخرى نظيفة وجيدة التهوية، ويضعنها داخل صناديق خشبية بعد لفّها في أكياس الخيش، شهر آخر تحفظ فيه قرون الفانيليا

داخل المستودع.

تزول علامات الجدية التي كستْ ملامح جعفر حين شرع يشرح لمونامينة قصته مع «الفانيليا»، وتعود أمارات الاسترخاء والطمأنينة. بينما تتفرّس مونامينة عينيه اللامعتين ببريق الذكريات البعيدة، كأنها ألهمته فكرة جديدة، أو أعادت إلى ذهنه ما نسيه، يقول مستدركًا:

- **تستطيعين استنشاق عبير الفانيليا يوم «بهجة العروس»[17] في الزواج الكبير، في هذه الأجواء تفوح الروائح العطرية من كل صوب، تتسلل إلى الأنوف قوية وناعمة، وتنشر غيمة من الأريج. فانيلا «البربون» أو القرن الصغير، يعرفها الجميع، ليست داخل الجزر القمرية فحسب، بل وخارجها، في ما وراء المحيط حيث الدول الكبرى التي تستضيف الشبان القمريين المهاجرين.**

17- اليوم السابع للزواج الكبير، وهو طقس خاص بالعروس.

6

مرّت الساعات سريعًا، كأنّ سحابة قد غشيتهما بعطر الفانيليا فأثارت مشاعر غامضة، وخدر يسري في أوصال كل منهما، رغبة تتأجج، ونشوة تعتريهما، أمسكت مونامينة بكفّه وطبعت قبلة حارة فوق أصابعه. أسرّ لها أن الأيام القليلة الماضية قد تعلّم فيها الكثير، ومن بين ما تعلّمه أن النشوة التي يجنيها المرء في مدن الجزر الكبرى ليست مرتبطة بمواسم زمنية بعينها، مثل مواسم إثمار الفانيليا، بل هي حاضرة دائمًا ما دامت مشاعر الانتماء والحب حاضرة بطبيعتها البدائية.

***

الذين يحفظون «مراسيم العادات الشفهية التي صدق عليها القمريون»، يعرفون جيدًا أن الفرحة المصاحبة لعادة «الزواج الكبير» تبدأ –عادة- يوم الخميس الثاني من الشهر القمري حين يعقد «المجلس» من رجال العائلتين، ويتوافد الشباب في صباح نفس اليوم بملابسهم ذات ألوان زاهية متنوعة. ما إن يفدوا إلى الساحة العامة أمام مسجد الجمعة، حتى يبدأ الحضور في تجهيزها بمفارش تليق باسمي العائلتين المقبلتين على المصاهرة

والاندماج بالرباط المقدس. ينظمون المقاعد في صفوف متتالية، بترتيب يحفظونه جيدًا ويعرفون كيفية تطبيقه، ترتيب يخضع لقوة ونفوذ كل عائلة تدرك موضعها بين الصفوف، كما يعرف كل فرد في كل عائلة موضع ترتيبه في صف عائلته، من الجد إلى الخال، إلى العم والأب والرجل ذي الشأن في كل دار.

تفرض التقاليد أن يصير الشبابُ في خدمة أصحاب اليوم، ورهن تعليماتهم وإشاراتهم. شقيق العروس هو المنظم الأول، يحيطه الشبان والأصدقاء، ويليه ابن الخال أو ابن الخالة، وابن العم أو العمة.

وبعدما ينتهون من تجهيز الساحة وترتيب الصفوف، يبدأ المدعوون في التوافد من القرى والمدن المجاورة والبعيدة بعد صلاة العصر. يستقبلهم أهل المدينة الذين يصيرون مثل عائلة واحدة كبيرة وممتدة، يصطحبونهم منذ تطأ أقدامهم أرض المدينة، ويقومون بتوزيعهم على ديارهم لينالوا الضيافة في صورتها البليغة، وتقدم إليهم الأطعمة والمشروبات المعدة سلفًا قبل أذان المغرب. وبعد الصلاة، يقضون وقتًا قصيرًا في انتظار الوفود التي لم تحضر بعد، فإذا اكتمل الحضور قبل أذان العشاء، أقيمتْ صلاةٌ جمعاء بعد الأذان مباشرة، حتى يبدؤوا الذهاب إلى المجلس مبكرين، ليشرعوا بالاحتفال.

يصير المجلس في وسط الساحة العامة محورًا للاحتفال. تبدأ طقوسه بتلاوة آيات من القرآن، تليها كلمة تهنئة وترحيب بالحضور يلقيها الأكبر شأنًا ومقامًا بين الجميع، يمتدح عائلتي أهل العروسين، والنسب الذي سيعقدانه ويجمع بينهما، ملتزمًا بما تمليه مراسيم العادات القمرية الشفهية التي تم التصديق عليها بإجماع القمريين على مرّ السنين. يعلن الخطيبُ نيابةً عن العائلتين نبأ اندماجهما على رؤوس الأشهاد، وقيمة المهر وتفاصيل الزيجة والبرنامج الاحتفالي الأسبوعي، والتحية الخاصّة التي تقدمها العائلتان في مظروف ورقي أبيض لكلّ وفد ذي شأن تشرّف بحضور هذا الاحتفال، وبعد انتهاء الخطبة، يشرع الشيخ «طالب العلم» في إلقاء خطبة أخرى حول فضل الزواج كطقس شرعي مبارك، ثم يُختتم المجلس بقصائد صوفية تُلقى على إيقاع آلة الدُّف القمري، يصحبها ناي البامبو، وتنشدها فرقة خاصّة من شبّان المدينة.

في اليوم التالي، يوم الجمعة الثانية من الشهر القمري، يتماوج صوتُ ستّ الدار سعيدًا مطمئنًا، تشعر بذاتها عالية محلقة، تطاول مرتفعات جبل كارتالا البركانية، شعور تغذيه النسوة القمريات في يوم «الجليكو»[18]، حيث يرتدي الرجال والشبان

18- الجليكو: رقصة قمرية للرجال والنساء، متبعين صفين على طول السكة المرسومة مسبقًا، وصولًا للساحة العامة، وتتكون دائرة على الساحة، لتبدأ رقصة السامبيه للرجال فقط يستعرض فيها مهاراتهم في لية الجليكو.

جلابيبهم وطواقيهم يدوية الصنع الموشّاة بالتطريزات البديعة المتنوّعة، التي تشي بالأصالة والصلابة وإصرار العائلات القمرية على التمسّك بأصالتها.

في ذلك اليوم، يخرج الرجال بعد الانتهاء من صلاة الجمعة في ما يشبه معرضًا للأزياء المنسوجة من الأقمشة المحلية، والموشاة بخيوط تنطق بمفردات الجزيرة الحيّة المعاصرة والتراثية. يخرجون لمرافقة ضيوف العرس إلى موائد الطعام المعدة في مضيفة بيوت الأقارب والأصهار، والجيران الذين يبدون وقتذاك كأقارب الدم. وبعد انتهاء صلاة المغرب تبدأ ترتيبات جديدة لحفل يستعرض فيه الذكور رجولتهم مثل النسور البرية، تحلّق في سماوات الفخر وتمتلئ بالثقة والاطمئنان، يسيرون تحت أعين نسائهم المحدقة. بينما لا تفلح النساء في إخفاء ولعهن بأزواجهن ورغباتهن المشتعلة في تحرير أنوثتهن المكبلة بين أيدي هؤلاء الرجال، لكي تفيض ينابيعهن بمياه الشهوة فتغرق الرجال بمتع لا تنضب.

تسري البهجة بين الجميع مثل تيار هوائي بارد في ليلة قائظة، يتعالى إيقاع الطبل القمري، ويأسر الآذان ويجذب الأجساد لتميل يمنة ويسرة.

لإيقاع الطبل القمري وقع خاص في مسامع الرجال والنساء

على حدٍّ سواء، طبلٌ هائل الحجم ذو وجهين ورقمتين جلديتين، يعلق في الأعناق أو الأكتاف، ويضرب بالكفوف دون استخدام مطرقة أو آلة صلبة كغيره من أنواع الطبول، يسير حامله بين الصفوف فيلامس الحاضرين بإيقاعه المنتظم فيمنحه فيضًا من الشعور بالانتشاء والخفّة.

وحين تحتضن الطبولُ آلات نفخ الـ»التوبا» العسكرية المزدوجة، ينتظم الحضور جميعًا في صفين طويلين متقابلين من الرجال والشبان والنساء والصبايا، ويتسرّب إلى الأسماع نغمات آلات وترية ترتفع بأمزجة الناس وتسمو بنفوسهم، فتكسبهم القوة والسكينة.

هنالك يبدأ طقس قديم، لكنه يتجدد مع كل «زواج كبير»، أو نَسَبٍ بين عائليتن، يحرص القمريون على دوامه كتقليد أصيل لا ينتهي. يقترب كل شاب من إحدى قريباته ويتناول وشاحها المطرز الذي تدليه فوق رأسها وكتفيها، فإذا سمحت له بأخذه، أمسك به بين أصابعه وسار إلى شخص آخر يجلس بين الحاضرين وألقاه فوق كتفيه، في إعلان صريح عن بهجة أخرى مقبلة بين عائلة الفتاة صاحبة الوشاح، وعائلة من تلقاه فوق كتفيه. ويتواصل الحفل ببهجة أخرى، يشيعها هؤلاء الشبان المقبلون على الحياة الجديدة.

يتحرك الحشد المحتفل بين الشوارع والميادين حول الساحة العامة دون عوائق، وكلما ازداد طول الصفين اللذين يتحركان سويًّا بانضمام محتفلين آخرين، ازدادت أعداد عازفي الطبول والتوبا، وما إن يبلغوا الساحة حتى يشرعوا في أداء الرقصة قبل الأخيرة ويتحلّق الجميع وسط الساحة في دائرة كبيرة، وتظهر الأوشحة التي تغطي أكتاف الشباب والرجال زاهية متلألئة، وتغمرُ صاحبات الأوشحة سعادة غامرة، وقد يفيض الدمع من أعين بعضهن اللامعة.

ثم يشارك الحاضرون في غناء معزوفة يحفظونها عن ظهر قلب، ذات سحر وخيال، لا تخطئها أذن من يحفظون «مراسيم العادة الشفهية» ويتمسكون به، إرث من الزمن البعيد، كلما تغنوا بها خامرتهم ذكريات بعيدة، كأنها من عالم لم يوجد في الخيال. يغنون:

«شَاه نَمْبِيْرِيْ سِيْ مَانِيْ نَامِيْ هُكَوِيْنْدَة وَا لُوُوْلِيْ كُجَنْلاَهَا و لاَ كُوْجَا جُوْسَا نْدُومِي يِنْسَهَاوُا يِي شَاه نَمْبِيْرِيْ سِيْ مَانِيْ نَامِيْ».

«الإصبع والخاتم، رمزان لسعادة المقبلين على العادة، وشعورهما بأحاسيس مبهمة لا أحد يستطيع اكتشافها، فلا تغضبوا من المشاعر الجماعية التي تصاحبها».

تتسع دائرة المتحلّقين في الساحة العامّة، وتتعانق الأيدي في تناغم هرموني يبدو كأنه انسجام مع الطبيعة، مثل أوراق أشجار السدر متصافة ومتناسقة. وحين تتعالى أصوات الغناء دافئة حارة، تنطلق طاقة الرقص «السامبي» في أجساد الحاضرين، فيما يتمايلون في حركات منتظمة بالأقدام والأيدي، كأمواج محيطية تتماوج فتدفع سفن الحاويات فوق صفحة المياه.

تصير الساحة الكبيرة بوتقة تنصهر في جوفها ألوان السعادة والمتعة، ويصطخب الحاضرون دون شعور بكلل أو ملل، في ما عدا الشيوخ المسنين والأطفال الصغار الذين يستجيبون لنعاس يتسلل إلى عيونهم عبر أصوات الطبول المنتظمة الرتيبة والأهازيج المتكررة، فينسحبون من الساحة ويتركونها ليتملّكها الشباب والصبية، الذين يتبارون في الرقص والغناء، كتقليد آخر من التقاليد القمرية التي تعضد من تماسكهم وتربطهم بالتراث والأرض. وتصير مثل هذه الاحتفالات ميدانًا للتنبؤ حول مستقبل الأنساب والمصاهرة بين عائلات الجزر.

***

في اليوم الثالث، في عصر السبت، يتواصل الاحتفال، لكنه احتفال خاص بالنساء، يدعى «حفلة وداحة»، يرتدين فيه ملابس «الشيروماني»، جوهرة الأزياء القمرية، ثوب زاهي الألوان، يشبه

«الساري» الهندي الذي تلتف به النساء كاشفًا عن مساحات مبهرة من ظهورهن وأكتافهن، له نفس الشكل والتطريزات، ويشبه الشماغ العربي في ألوانه. من ترتديه يمنحها قيمة اجتماعية بين قريناتها من النساء لما يضفيه من هيبة ورصانة، وقيمة جمالية يبرز من خلالها جمال الأنثى!

في يوم السبت تدهن النساء والفتيات وجوههن بالـ»المسِندَان» فيبرزن حيويتها ونضارتها، ويرتدين أطواقًا من الورود تشعرهن بتيار دافئ دون أن ترتفع درجة حرارتهنّ. يشاركن في الاحتفال بالغناء الارتجالي النابع من أصواتهنّ المتنوّعة ذات الطبقات النغمية الخاصة، ويرقصن على إيقاعات طبول «الرأس إفريقية»، تلك الآلة الخشبية المصنوعة من شجر السِدْر، بعد أن يتم تشذيبه وتجويفه بالـ»منقر»، وينعّم من الداخل بالسنفرة اليدوية، حتى يأخذ شكلًا أسطوانيًّا مستديرًا ملائمًا، ثم يُترك تحت الشمس حتى يتقوّى ويشتد، ويصبح قابلًا لتثبيت صفحة رقيقة من الجلد الجاموسي أو البقري، فوق فتحته. ويصير مهيَّأً للضرب باليد العارية ليصدر أصواتًا حادة مميزة تتطابق مع الدرجات الصوتية في السلالم الموسيقية القمرية التي تُحفظ في القلوب والأذهان ولا تدوّن أو تُسجّل.

هذه الطبول وحدها تمكّن النساء من تشكيل نغمات وألحان موسيقية تناسب إمكاناتهن الصوتية، وتتلاءم مع النغمات النابعة من أصوات قطع أخشاب البامبو التي يقبضن عليها بأصابعهن ويضربن بأكُفّهن.

في هذه الأثناء يبدأ طقس آخر مصاحب لأصوات الطبل، إذ تشتعل الأجواءُ حول الدائرة المحيطة بـالـ«هون الخشبي» ذي المضرب الكبير، الممتلئ بالحبوب والغلال، فتقوم كلٌّ واحدة منهن بالإمساك بالمضرب ورفعه والنزول به عدة مرات، والدقّ على الغلال في قاع الهون الخشبي دقات متتالية ذات إيقاع، ثم تلقي المضرب إلى المرأة الأخرى التي تليها، لتؤدي نفس الحركة في تتابع منتظم، يشي بالود السائد بينهن وحالة التكافل بين الجميع.

***

تتهيأ الساحة العامّة لاستقبال الجميع وقضاء ليلة طرب جديدة من ليالي «الزواج الكبير»، والمشاركة في غناء أبيات شعرية من الموروث الشعبي القمري، غالبًا ما تكون واحدة من ملاحم «جمشيد بن سعيد» أحد أبناء السلطان سعيد في زنجبار. أبيات من الشعر الموزون تتغنى بالعائلات القمرية الكبيرة، وتقدّس النزعة العائلية والترابط الوثيق، يشارك الجميع في حالة سرور جماعية تنتقل بالإيحاء بين الأفراد، حتى هؤلاء الذين يعانون الألم أو الوحدة أو يشعرون بالحزن لسبب ما، حين يدفعهم أحباؤهم للمشاركة في الاحتفال، تتسرب إليهم البهجة شيئًا فشيئًا، فيغدون جزءًا من مشهد متسع تحيط معالم السعادة بأطرافه كافة. كثيرون مروّا بهذه الحالة كشأن كل إنسان في كل مكان، حالة

الحزن والافتقاد، خاصة الذين سرق الموتُ غاليًا لديهم، وكانت هذه الاحتفالات التي خطّها القمريون في «المرسوم الشفهي الذي صُدِّق عليه بإجماع القمريين» منذ زمن بعيد لا أحد يتذكره، هي الملاذ لهم من الشعور بالوحدة والحزن والألم.

يتعالى الغناء، وتتعالى الأصوات التي تتماوج بالنغمات المميزة، وتهتزّ عقود زهور الـ«إيلانج لانج»[19] والياسمين، وتتطاير مع الأجساد وتتمايل مع الأنغام. يختلط الإناث والذكور دون أن يفكّر أحدهم في محاذير أو قيود، إنما يستسلمون فقط لبساط ليلة سبت الله الذي يطوي الجميع بين حوافه الممتدة، ويتماهون في طبيعة الجزر القمرية.

هكذا تتوسع الدائرة وتحتلّ مساحة أكبر، وتغدو مثل نواة صغيرة تدور حولها حياة القمريين، وتذوب فيها مشاغل الحياة اليومية. تحمل داخلها المبادئ الرفيعة، والمعاني السامية، وتصير طقوسها عاملًا قويًّا يؤثر بالإيجاب في الكيان العائلي الموصول في الجزر كافة، في كل مناسباتهم، في «الزواج الكبير» أو «الإنجاب» أو «الطهور» أو الأعياد والليالي الدينية، ليعيش أهلها حاضرهم موصولًا بماضيهم، متوحّدين في الغناء والرقص والموسيقى، وغيرها من الفنون التي يحمل الناس كافة تجاهها مشاعر خاصّة تكاد تكون واحدة متساوية في وجدانهم جميعًا.

19- نتشر في جزر القمر زراعة «إيلانج لانج»، ويعني زهرة الزهور، التي يستخلص منها عطر فواح تعتمد عليه أشهر شركات العطور بالعالم.

***

يبلغ أسماعهم خبر ولادة ابنة خالة مونامينة، وإنجابها توأمًا، فتستقبل الأخيرةُ الخبرَ وتستبشر بالخير القادم، تأخذ جعفر لزيارة ابنة خالتها، وهنالك يستمعان إلى الجدات والنساء اللاتي يقمن بخدمة أم التوأم ورعاية طفليها.

دائمًا تقف الجدات على عتبات المناسبات القمرية، السعيدة منها والحزينة على حد سواء، هن من يرشدن الجميع إلى مسارات الطقوس والعادات، يغالبن أحزانهن في الأحداث البائسة ولا يستسلمن للأخبار المفجعة، كما لا تسرقهن المناسبات السعيدة المفرحة، فيشاركن في الاحتفال ويتناسين ما عليهن من واجبات أخرى، كإعداد الأطعمة وترتيب أماكن الجلوس وتجهيز الملابس وغيرها من المهام والمتاعب التي يتصدين لها بروح مقبلة مُحبّة. كأنهن حارسات أمينات على «المرسوم الشفهي الذي صدّق عليه القمريون».

يتبادل جعفر معهن الأحاديث، فيقرأن عليه بعضًا من «المرسوم الشفهي» الذي يحفظونه، فيعرف المزيد من تفاصيل أيام الزواج الكبير ودقائقه الصغيرة، خاصة تفاصيل يوم الأحد وطقوسه، يوم الزفاف، الذي يبدأ بتحرّك كبار المدينة في الصباح الباكر، إلى ساحة دار العروس، حيث يستقبلهم كبير العائلة، الأب أو الخال أو الأخ الأكبر. ويعقد جعفر مقارنة ذهنية سريعة بين يوم

الأحد وبين «سبت الله»، فيرى أن ما يصير في سبت الله هو أشبه بامتزاجٍ تذوب فيه الاختلافات والفروق حتى بين هؤلاء الذين لا تجمع بينهم صلة قرابة قريبة أو بعيدة.

فيما تقول مونامينة، إن هذه الطقوس هي ما تحفظ للرجل القمري جينات العادات بداخله، وتضمن ألا يُقتلع من جذوره أبدًا!

تحكي الجدات عما يصير في «أحد الزفاف»، واحدة بعد أخرى، حتى تتحدث مَن بدتْ لجعفر أنها الأكبر سنًّا والأكثر دراية، تقول:

- **في باكورة أحد الزفاف يتحرّك كبارُ العائلات، فيمضي بعضهم إلى ساحة دار العروس حيث يستقبلهم هناك الجد الكبير ومعه الأب أو الخال أو الأخ الأكبر، وبعضهم الآخر يسير إلى ساحة دار عائلة العريس، حيث تستقبلهم عائلته وأصدقاؤه. وهناك ترتفع الزغاريد لتعلن بداية «الزفاف»، فإن كان للعريس أخوات من النساء تقف أكبرهن عند باب الدار، في ثوب حريري ذي أربعة ألوان، الأبيض: الذي يرمز إلى العذرية والطهارة عند العرائس ذوات الشأن والمكانة، الأبيض الذي يرتبط في أذهاننا بالسعادة والمرح وصفاء النفس والسكينة والسلام، ويبعث على التفاؤل والسرور. والأزرق: الذي يعبّر عن نقاء الروح، باعتباره لون السماء ذا السموّ والعمق، ولون المياه الصافية بما توحيه من برودة وارتواء، ورمز الصداقة التي تربط بين القمريين ولون**

الحكمة ومانع الحسد بتأثيره المباشر على الحشرات في الجزر. وكذلك اللون الأحمر: الذي يحذّر من خطر الاندفاع والعصبية وحدّة المزاج، ويعبّر عن الإرادة الصلبة والعزيمة، اللون الذي يليق بالذين يحبّون الإثارة وحلّ الألغاز والغموض والعواطف القويّة والهيام، والمشاعر الساخنة التي تعكس الرقة والرومانسية. والأصفر: لون الفاكهة عندما تميل إلى النضج والطراوة في مواسمها، موحية بالجمال والتألّق والحيوية، واللون الذي اعتبره القمريون أكثر الألوان التي تزيل التوتّر والوساوس المرتبطة بالأمراض، وهو لون أشعة الشمس المتساقطة على بقاع الأرض القمرية، لتثير إحساس الدفء والحيوية، وتشيع حالة الهدوء والسكينة داخل الإنسان القمري.

وتحكي الجدة أن أخت العريس حين تقف عند بوابة الدار لاستقبال وفد «أحد الزفاف» لا بدَّ أن تكون مرتدية ثوبها ذا الألوان الأربعة، وأن تزدان بالحُلِي الذهبية من الأساور والخواتم والحلقان والعقود. الحُلي المُصاغة من العروق الذهبية التي تلقي بها الانفجارات البركانية في هيئة مكعبات بلورية مفلطحة أو شجرية الشكل، يجود بها جوف الأرض منذ مئات السنين. حُلي ذهبية تتفاوتُ درجة اصفرار معدنها ونقائه بين الذهبي الفاتح والفاقع، بحسب حجم حبيبات الفضة المختلطة بالمعدن الأصفر. كل القمريات، منذ وجدن في هذه الجزر، كن يعتبرن المعدن

الأصفر مصدرًا للتفاخر والأبهة، وتتويجًا لجمالهن وتقديرهن لدى العائلات القمرية، بما يشعّه من بريق خاصّ تعشقه العين من النظرة الأولى. بينما يعتبره أرباب العائلات وكبارها الملاذ الآمن القادر على الحفاظ على بقاء العائلة القمرية الأصيلة ذات شأن على الدوام، فهو الضامن ليسر الحال، وبحبوحة العيش. حينذاك تُلقي أخت العريس الكبرى كلمتها، فتحكي – في البداية- شيئًا عن تاريخ عائلتها، عائلة العريس العريقة، وعن أصالتها، ومكانتها كجزء من المجتمع القمري الأصيل، وكيف تحرص العائلة على صيانة التقاليد والعادات داخل الجزر، كما تحكي عن أخيها -الذي يتهيأ في غرفته الخاصة داخل البيت للخروج مع الرجال- فتعدّد مآثره وصفاته الجميلة. ومع تدفق كلماتها الحارة الممتزجة بدموع الفرح واختلاجات السعادة تتعالى الزغاريد وتتصاعد في ما يشبه سيمفونية موسيقية خلابة، تعزفها نساء العائلة وضيفاتها.

ثم تحمل النساء جهاز العروس، ولوحًا خشبيًّا مغطّى بقماش حريري، تثبّت فوقه المشغولات الذهبية في شكل جمالي آسر، لكي ترتديه العروس في ليلة زفاف الأحد، وتقوم إحدى النسوة برفع اللوح عاليًا حتى يتمكن الجميع من رؤية ما يحتويه، ويشاهدن عدد المشغولات وأنواعها ويخمنون قيمتها، ليشهدوا على قيمة من سترتديه. فتتبدّى أمنيات الفتيات المقبلات على «العادة»، كما تستيقظ ذكريات النساء اللواتي تزوجن ومررن بنفس اليوم من قبل. حين يبدأ طقس «الزينة» تلتزم النساء صفًّا

على اليسار، ويتخذ الرجال الصف الأيمن، يتوسطهم العريس، في أبهى ملابسه، محاطًا بكبار عائلته، والرجال أصحاب الشأن في المدينة وإخوته بالدم والعِشرة.

فيما يقف العازفون الهواة بين هذين الصفين، وقد بدت عليهم آثار ما تناولوه من مواد كحولية مصنوعة من أنواع معينة من الفاكهة، أو من القنب الهندي. أما المصنوعة من الفاكهة فلن تكون –بطبيعة الحال- سوى تلك الزجاجات التي اعتادت عائلة «جيلبير» الفرنسية أن ترسلها للعازفين كتحيةٍ منها إلى عائلتي العريسين، ومشاركة منها في الزفاف السعيد، بعد أن صار أفراد هذه العائلة مثل المواطنين القمريين بعد الاستقلال، غير أنهم أشبه بالإقطاعيين الرأسماليين في طريقة معيشتهم وسلوكهم!

بينما لن تكون الخمر المصنوعة من «القنب الهندي» كذلك سوى تحية أخرى ترسلها «عائلة جرينهي» الهندية التي اشتهرت بتجارة الدواء والذهب، على الرغم من أن «عائلة جرينهي» نفسها قد حظرت على الفلاحين والصيادين منذ زمن بعيد تعاطي أوراق شجرة «القنّب الهندي» الذي يهدئ الأوجاع ويسكّن الآلام ويطرد الأحزان، لما يسببه من أمراض وأضرار صحية. وكان هؤلاء الهنود يستخلصون أوراق القنّب الهندي ويرسلون بها، عن طريق سفنهم التجارية، إلى خارج الجزر ليتم تصنيعها، ثم يعيدون استيرادها كمواد طبية ونفحات.

***

يتعالى قرعُ الطبول ودقُّ الدفوف وأنين نايات البامبو، ويواصل العازفون اللعب على آلاتهم لتمتزج بأصواتها أصواتُ نساء الدار وضيوفهن، وتصير معزوفة واحدة منسجمة.

في زفاف الأحد، تخرج زفة العريس من أمام دار عائلته، وتقطع أحياء المدينة ودوربها، وتمر بساحاتها الواسعة، وعند كل تقاطع أو ساحة عامة أو ميدان، يتوقّف الركب قليلًا ليشهد دقائق من الاحتفال الكبير، حتى إذا بلغ موكب الاحتفال دار العروس، شرع أحد رجال عائلتها يؤذن مثل أذان الصلاة، خاشعًا وجلًا منغومًا ببهجة العرس. بينما يبقى العريس ومن يرافقونه وقوفًا يستمعون إلى الأذان وجلين خاشعين يرددون كلماته خلف المؤذن، وكل منهم يدعو في سريرته أن تتم البركة وتكتمل الفرحة. حتى إذا انتهى المؤذن من مهمته، بدؤوا يدخلون الدار، بينما تستقبلهم زخّات من حبات الأرز التي تلقي بها النساء فوق رؤوسهم دفعًا للحسد والعين الشريرة.

وعلى رؤوس الأشهاد يبرز وكيل العروس، أحد كبار عائلتها، والموكل بإتمام الزيجة، يقف أمام الجميع رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، ليعلن استلام «المهر» فيشهد جميع الحاضرين –وبشكل رسمي- باكتمال الزواج الكبير وتلاحم العائلتين..

في ذلك اليوم، زفاف الأحد، ترى نساء الدار وفتياتها، الصورة الحقيقية التي ظللن يتخيلنها، حول الضيف الدائم المنتظر، فتنطبع في عقولهن كصورة دائمة لـ»العادة»، وتظل هذه الصورة وحدها باقية في أذهانهن، تحلم كل فتاة بذات اليوم الذي ستُزَفُ فيه إلى العريس المنتظر، كما تحلم كلُّ امرأة متزوجة بأن ترى أبناءها في مثل هذه المكانة ذات يوم.

في مساء نفس اليوم، يُقام حفلُ الليلة الكبيرة، حيث تخرج العروس إلى الساحة القريبة من دارها بعد صلاة العشاء، في جمع كبير من الأقارب والمعارف والجيران، لحضور مراسم احتفال الأحد، وتشارك في رقص هذه الليلة، وفي هذه الرقصة إعلان عن تحرّرها من شخصيتها القديمة، وبداية شخصية جديدة، هي شخصية الزوجة، ملكة الدار، التي تنتقل ملكيتها من بيت أسرتها إلى الرجل ذي الشأن في دارها.

احتفال هذه الليلة يحييه –كالمعتاد- الفنان «سليمان»، المعروف بميوله الجنسية المثلية، ومعه فرقته من «الخلابيص»[20]، في أجواء معطّرة بروائح النساء التي تشيع لذّةً حسيةً تتسللُ إلى أنوف الرجال وتداعب مخيلاتهم. تستعرض النساء ملابسهن وحليّهن وزينتهن، على اختلاف أعمارهن، حتى هؤلاء اللاتي تجاوزن الشباب وصرن على أعتاب الشيخوخة، يظهرن وقد أضاف الزمنُ لأجسادهنّ حرارة خاصة، ومزيدًا من المتعة تجعلهنّ في ذروة

20- الخلابيص: المعنى الدارج لمثليي الجنس.

الانفعال والمشاعر.

هؤلاء النساء يصرن قدوة لكل عروس كي تتعلّم أن تؤدي دور الأنثى في كل وقت وكل حال. فهي تحرس وتربي وتعمل وتحافظ على بيتها وزوجها وأبنائها، وفي الوقت نفسه تحتفظ بحالة البهجة حاضرة في قلب دارها وخارجها، فتبقى ملكةً قادرة على جعله ملاذًا آمنًا للسعادة العائلية.

وفي هذه الليلة، تظهر أكبر النساء سنًّا ودراية بـ«المرسوم الشفهي المصدق عليه بإجماع القمريين» كرقيبة ومشرفة على الحفل الكبير، بل يتجاوز دورها إلى تسجيل ما قدّمه الحاضرون من هدايا مالية في دفتر يطلق عليه «كراسة العادة»، وفي آخر الليلة تعلن حصاد ما حصلت عليه العروس من عطايا، فيكون إعلانها مبعثًا على المزيد من البهجة والسعادة في دار العرس.

7

انتبه جعفر إلى صوت الخواية القوي الذي يسبق العواصف والأمطار، فظنّ أن هناك منخفضًا جويًّا يتشكل فوق الجزر، سيجذب إليه الرياح الشديدة من مناطق الضغط المرتفع، وتوقّع أن ثمة أمطارًا وفيضانات قد تتحول إلى سيول جارفة قد تقع خلال وقت قصير، لكنه أبعد الخاطر عن ذهنه، بل أقنع نفسه أنها ربما كنت مجرد نوبة رياح قوية سوف تهدأ سريعًا. ولم يشأ جعفر أن يثير خوف النساء بظنونه أو يقطع عليهن الحكايات التي تتدفق على ألسنتهم عن أيام الزفاف وتفاصيل التقاليد التي يقصصنها على مسامعه.

وحين لاحظ أن الصمت قد تسلل إليهن، نظر إلى مونامينة، محاولًا حثّها على استكمال الحديث، قال:

- **هل تنتهي مراسيم العادة بانتهاء زفاف الأحد؟**

جاءته الإجابة على ألسنتهن، كل منهن تسلم طرف الحديث إلى الأخرى، لتكتمل الصورة أمامه واضحة بينة، قلن إن طقوس الزيجة تتواصل إلى الاثنين، الذي يشهد نهاية مراسيم الزواج

الكبير، فهو اليوم الأنسب دائمًا في الجزر كافة للشروع في أي عمل أو مسعى جديد، ذلك أنه أول يوم في الأسبوع عند الشريك الاستعماري، وفيه يجتمع الأصدقاء الذين عقدوا العزم على فعل العادة أو مَنْ سبق لهم في فعلها، في بيت العروسين، هناك يشرعون في إعادة ترتيب مخزون الذاكرة، فيحكون قصصًا ويجترون ذكريات تُنقّي سيرتهم من الشوائب، يتغافلون عن الحكايات المسيئة والمواقف المخزية، ويركّزون على القصص التي يتمسكون فيها بقيم «العادة» بما يريح ضمائرهم ويسكن نفوسهم، بحيث لا تصير حكاياتهم القديمة عائقًا أمام ممارسة للعادة وفتح باب الوصال بفتيات العائلات لنيل الشرف الرفيع.

في هذا المناخ يمتلئ الشبان بالرغبة في بلوغ «العادة» كي تتعزز مكانتهم في الحياة الاجتماعية، ويصير لهم عزوة من الأبناء والبنات، أبناء الرحم الواحد.

وكالمعتاد، ينتهي اليومُ بكلمة تلقيها صاحبةُ الدار على مسامع الضيوف، تشكر لهم حرصهم على المجيء وتقديم التبريكات، تنتظر مباركة زوجها على حسن استقبالها لضيوفه، ليشهد على حصافتها وحسن تدبيرها، وليطمئن إلى أنه تزوج بامرأة ناضجة تحسن التصرف والتعامل مع الأمور كافة.

وبعدما ينصرف الضيوف، يبقى الزوج «الضيف الدائم» مسترخيًا في جلسته على الفراش الوثير، بينما ترتدي الزوجة رداء «الليسو»، المنسوج من القماش القطني المشجر، والذي

يكشف عن بعض مفاتنها، من أعلى الصدر وأسفل الركبتين، وتقترب الزوجة من زوجها، وتشرع في مداعبته وتدليك جسده بقطرات من زيت جوز الهند صافي اللون، زكي الرائحة، بما فيه من مذاق شهي ونكهة مسكرة، خاصة حين تضاف إليه أوراق الياسمين والإيلانج لانجي والفانيليا، حيث يتخذ ملمسًا ورائحة خلابة. تستخرجه كل فتاة مقبلة على الزواج الكبير وتقوم بتحضيره استعدادًا لزواجها، ويظل فعّالًا صالحًا للاستخدام مدى الحياة. تُعالج به الأمراض ويستخدم في إنقاص الوزن دون عقاقير ودون اللجوء إلى اتباع حمية غذائية قاسية.

وغالبًا ما تسأل الزوجة زوجها وهي تدلّك جسده برغبة واشتهاء تتحسس أعضاءه وتكتشفها، تسأله عما رآه منها في يومهما الأول، كيف كان نهجها في وجود أصدقائه؟ وهل استطاعت أن تظهر على النحو الذي يتمناه أم لم تفلح؟ فإن كانت قد اهتمّت بالجميع ولم تهمل أحدًا، رأت نظرة الرضا والسرور في عينيه، وقوّتْ روابط اتصالهما الأبدي، وبعدت عن أسباب التمزّق والانشقاق. في هذه المناسبة يرى الأصدقاء الذين لم يسبق لهم الزواج، كيف تكون حياة الزوجين في بدايتها، فيصيران حافزًا لهم على إتمام زواجهم الكبير.

***

ارتفعت الرطوبة، وغامت السماء ومالت إلى اللون الرمادي الفاتح، ومع تكاثف بخار الماء في قطرات دقيقة ترتفع عن سطح الأرض وتتصاعد إلى الطبقات الجوية العليا، اقتربت مونامينة من جعفر بعدما شعرت أن ثمة ما يؤرّقه. بينما يستغرق جعفر في شروده، يصبغ الأزرق الفيروزي عينيه بلون الحيرة والاضطراب. تبدو السماء كأنها ازدادت اتساعًا ويبدو الموج -رغم هدوئه- صاخبًا لا يكف عن الحركة. يضم جعفر ركبتيه إلى صدره ويحيطهما بذراعيه فتضع مونامينة كفيها فوق كفيه، كأنها تحاول احتواءه، تسأله إن كان هناك ما يؤرّقه أو يشغل فكره، فيهز رأسه نافيًا، بينما نظرته لا توحي سوى بالشك والتساؤل. يسألها:

- **هل تحبين المطير؟**

تجيب: أنا ككل القمريات، أحب المطر لأنه ينمي النباتات الفصلية في المناطق الموسمية، وينمي حشائش السافانا في المناطق المدارية، فيشيع الوئام بين حيوانات هذه البقاع! لا نزاع حول الغذاء أو المأوى، ويغمر الفيض كل المخلوقات.

يبتسم جعفر، وقد أعجبته رؤية مونامينة الحالمة، كأنها تصف مشهدًا في فيلم رومانسي قديم. سرعان ما يتصاعد الهواء الرطب إلى السماء ليكتسي بالبرودة، ويصبح مشبعًا بالبخار، مكوّنًا طبقات من السحب، تحجب صفحة القمر. يشير إليها جعفر

لكي تقترب فتميل بجذعها إلى جانبه، فيحيطها بذراعه اليسرى. تستطرد هي وقد شعرت برغبته في سماعها، تقول:

- **تعرف يا جعفر! يقولون هنا إن أمطار الجزر تزيل سموم الجسد، وتزيد نشاط هرمونات السعادة. لهذا ترى وجوه الصغار والكبار تكتسي بالبهجة مع كل دفقة من المطر، وتشيع حالة لا أستطيع أن أجدها في أي وقت آخر.**

***

أرعدت السماء وأومض البرق بين أركانها، وتتابعت زخاتُ المطر غزيرة متلاحقة ومتصاعدة. نهض جعفر ومونامينة مسرعين نحو أجمة متشابكة الأغصان للاحتماء من الماء المنهمر، سادت حالةُ طقسٍ يشبه حالات الطقس الاستوائية المطيرة، فانتبها أخيرًا إلى مرور الوقت، وتأخرهما عن موعد عودتهما إلى بيت الجدة.

في طريق العودة، حكت مونامينة عن أول صلاة جمعة بعد الزواج الكبير، حيث يخرج العريسُ من البيت إلى مسجد الجمعة برفقة أشقاء العروس وأصدقائه المقربين، مرتديًا، هذه المرة، جبّةً وشالًا، وعلى رأسه طاقية مطرزة بكلمات البسملة من خيوط الكتان، وتحت الجبّة جلابية من الكتّان يدوية الصنع أيضًا، حاكتها النساء في عائلة العروس، ولا بدَّ أن تشي ببراعة أهلِ دارها وأصالتهم في حسن إيواء الضيف الدائم. وفي مسجد

الجمعة، يتّخذ مكانه في الصفوف الأولى، ويتلقى التحيات من الكبار ذوي الوقار والهيبة، ويشعر أفرادُ العائلة بأهميته فيقدرونه ويمنحونه احترامًا أكبر، بل يصبح في صدارة مناسبات العائلة، واحتفالاتها الخاصة، في عيد الفطر، والأضحى، والمولد النبوي، وفي المناسبات العائلية، كالولادة والطهارة والخطوبة، وحتى الزواج الكبير، والذهاب إلى الحج، إلى حالات الوفاة.

وبعد انتهاء صلاة الجمعة يخرج من المسجد بصحبة أهله وأصدقائه، يسيرون معًا في مسار معلوم سلفًا وفقًا لشجرة عائلته. حيث يزور أفراد أسرته المقربين ويمر ببيوت شقيقاته المتزوجات، وبعد هذه الجولة يذهب الجميع إلى دار العروس لحضور وليمة الغداء، وعند باب الدار تكون نساء العائلة المضيفة في استقبالهم، ينثرن حبّات الأرز فوق رأسه دفعًا للحسد، ويرددن ما يحفظن من كلمات تتوسل إبعاد الشرور لأبعد من مئتي كيلومتر عن «مايوت» وأربعين كيلومترًا عن «موهيلي» وثمانين كيلومترًا عن «أنجوان»، ليصبح العريس في مأمن من كل شرّ.

8

حين عاد جعفر ومونامينة إلى دار الجدة، وبينما تدقُ الأمطارُ النوافذَ المغلقة، ويدوي صوت الرعد واضحًا جليًّا، أخذت الجدة كوكو تحكي عن زوجها، جد مونامينة، تتداعى الذكريات على لسانها، فانتبه جعفر إلى أن الجد كان –قبل موته- قعيدًا، معاق الحركة، فسأل الجدة مندهشًا، كيف كان الرجل عظيم الشأن بين كبار الجزيرة، رغم إعاقته التي كانت تحول دون تحركه؟

تجيبه كوكو وقد التمعت عيناها ببريق حبها القديم:

- **كان جدك حكيمًا، ومنذ صار الرجل ذا الشأن في داري بعد زواجنا الكبير، اتخذ مكانته داخل الأغلبية المحصنة، وقام بما عليه ليصير ذا مكانة وشأن عظيم، وأول ما فعل، كان أن أعلن تبرّعَه بقطعة أرض من أراضي أجداده المقابلة للبحر في أيام الاستعمار الفرنسي، لبناء مستشفى الشمال العام، التي كان يُعالَج فيها المصابون في كارثة سقوط الطائرة، تبرع بها كصدقة جارية لروح شقيقته الوحيدة التي ماتت وهي في سن البلوغ، فبعد موت الحاج عداروس مروجاي بونا، المتحدث باسم الأغلبية المحصنة في منطقتنا الشمالية، ارتقى جدُّك ليحل مكانه، وقد استحق مكانته**

بحُسن هيئته، وما اتسم به من ود يجلب له محبة كل من حوله، وعندما تقدّم به العمر أصيب بشلل في الحركة، بسبب مرض داء الفيل الذي انتقل إليه من البعوض، حين كان يتفقّد أراضي العائلة في موسم الحصاد.

جاءت مونامينة تحمل أكواب العصير الطازج، بينما كان جعفر مصغيًا لحديث كوكو، ولم يشعر بقدومها إلا بعد أن أمسكتْ بالكوب ووضعته أمامه باسمة، فارتشف بعضًا منه، والتفت مرة أخرى إلى الجدة ليسمع بقية حكايتها عن الجد رحمه الله.

قالت الجدة:

- **حين اشتد عليه المرض، وشعر أنه قارب الموت، أوصى بتوزيع جميع الهدايا التي تلقاها من محبيه في الجزيرة، وقمت بتنفيذ وصيته، لكنني احتفظت فقط بهذه الطبلة القمرية، التي كان يهوى صوت إيقاعها، وتثير في نفسه ذكريات قديمة لمناسبات سعيدة شارك فيها أبناء الجزيرة طوال سنين عمره..**

وأشارت الجدة ناحية جدار بعيد في أحد أركان الدار، معلق عليه بعض الأدوات التراثية، وبعض إطارات الصور العتيقة، خنجر منقوش بزخارف عربية، ولوحة خشبية منحوتة برسم بحري، ونموذج مصغّر لسفينة شراعية عملاقة. وفي ركن بارز، عُلّقت طبلة كبيرة، بحبل مجدول من الألياف، وثبتت بمسمارين

طويلين إلى الجدار.

نهضت مونامينة من مقعدها، واتجهت إلى الجدار وأنزلت الطبلة بحرص شديد، وأشارت لجعفر لكي ينهض ويشاهد الطبلة عن قرب، فاستجاب الأخير، بينما أخذت مونامينة تستكمل حديث الجدة عن الطبلة:

«هذه واحدة من الطبل القمري كبير الحجم، حيث يجوّفُ جذع شجرة السيسم النادر، ويسوّى يدويًّا، وتُزال نتوءاته، ويُغطّى من الجهتين برقمتين من جلد الغنم، أو من جلد الرقبة في ذكور الأبقار، لأن ذلك الجزء هو أكثر مناطق جسدها حركة وليونة، ومن ثم فإن الجلد الذي يغطيها له نفس ليونتها. تُشَدُ قطعتا الجلد على وجهتي الأسطوانة بحبال من ألياف أشجار جوز هند، تتيح لعازفها التحكم في قوة الصوت عن طريق شد الأحبال أو إرخائها.. هكذا يصنع الطبلُ، آلةُ البهجة عند القمريين، حين يُدّقُ وتتعالى أصداؤه، يُطرد الخوف والقلق، وتدب في النفس مشاعرُ الهيبة والإثارة والوقار.

يحمل جعفر آلة الطبل ويختبر صوت إيقاعها بدقتين من يده، بينما تواصل مونامينة حديثها كأنها تقرأ من «المرسوم الشفهي» الذي تحفظه عن ظهر قلب كأنها واحدة من الجدات، لا شابة في مقتبل العمر، تقول:

«هذا الطبل القمري من فصيلة «الرحماني»، يعزفه المَهَرةُ باليدين على إيقاعات أساسية متنوعة بتنوّع الجزر الأربع، معروفة بإيقاعها وصوتها الذي يحفِّز العقل والجسد، ويحثُّهما على الإبداع الذاتي، حتى إن توقّف عازفو الآلات الأخرى عن العزف في فرقة موسيقية ما، يستطيع الطبل الرحماني أن يحفظ حالة البهجة على المغنيين ليواصلوا الغناء.

***

خرج جعفر عصرًا برفقة خال مونامينة لحضور يوم الأربعين بعد وفاة جارهم المرحوم حاج سيد محمد سقاف، وهو اليوم الذي ينتهي فيه الحداد، ويُرفعُ ستار الحزن الذي يهيمن على عائلة الميت لأربعين يومًا متواصلة، تكون خالية من مباهج الحياة، لا تتعامل فيها أرملة الميت مع الرجال كافة، عدا ثلة قليلة من ذكور عائلتها وعائلة زوجها، وتظل منعزلة داخل جدران بيتها لا ترى شمسًا ولا تستنشق هواءً ولا تسمع صوتًا من الخارج، بل تبقى داخل البيت لتستقبل الزائرات الوافدات لتقديم واجب العزاء. وفي العزاء، وحين تشرع كل منهن في ذكر محاسن الميت ومآثره، يرتقي الميت بسيرته إلى عنان السماء، إذ يرتفعن به إلى مراتب الأولياء والقديسين، لتظل روحه حاضرة باقية بين من أحبوه. وحين يجتمع الأقارب والأصدقاء والجيران يوم الأربعين

في مسجد الجمعة، لإحياء ذكراه يدعون له بالرحمة والمغفرة، ويدعون لعائلته بالبقاء متماسكة تنمو بالذرية الصالحة، وفي هذه الأثناء يخرج عدد من كبار البلدة ليرتجل كل منهم خطابًا يحفز به الأجيال الجديدة، إلى أن يحين دور أكبر رجال العائلة عمرًا، وأجلهم شأنًا، ليشكر كلّ من تحمّل عناء المجيء للمشاركة في يوم الأربعين، ويُقدِّمُ الخالُ «وجه الأسرة» ويُصعِّده ليتبوّأ المكانة ويحل محل الميت، ويؤدي الدور الذي كان يقوم به في العائلة.

بعد انتهاء الأربعين وعودة الخال وبرفقته جعفر إلى دار الجدة، أمرت كوكو مونامينة أن تحضر فاكهة البباي من أجل الضيف، فاسترجعت ذاكرة جعفر كلام جدته، حين كانت تتحدث إلى أخته موناعرفة منذ سنين، فقال:

- **منذ سنين لم أتناول هذه الفاكهة، لم أعثر عليها خلال سنوات غربتي، وكنت دائمًا أتذكر كلام جدتي حين كانت تقول إن ثمرة البباي الاستوائية تستعمل جذورُها لدى الإنسان القمري في علاج مرض «البواسير» وآفات الأوردة والسيقان اللحمية، وتصلّبات الجلد، وبعد نضوجه تستخدم عصارته في عمليات الولادة أثناء مرحلة الطلق حيث توضع على فوهة الرحم لتسريع الولادة.**

ترد مونامينة بدورها:

«أنا أيضًا أحب هذه الثمرة، فبذورها تطرد الديدان، وأوراقها تساعد في تخفيف الآلام العصبية، ومعالجة داء العدوى الجنسية، وتستخدمها النساء لمعالجة البشرة وإكسابها النعومة من خلال أقنعة تجميل خاصة، أمّا الزيت المستخلص من الثمار، فيستخدم في تقوية الشعر عن طريق تدليك فروة الرأس مرتين يوميًّا ليعود الشعر الأبيض إلى طبيعته السوداء في ثلاثة أشهر فقط لا أكثر.

9

مر نحو أسبوع كامل على كارثة الطائرة اليمنية، اتخذت خلاله الحكومة القمرية وشركة الطيران اليمنية والدول المعنية، كل الإجراءات اللازمة لنقل المصابين والضحايا إلى بلدانهم، وأقامت مدن الساحل الشمالي بالتعاون مع السلطة القمرية، حفلًا لتكريم دكتور **برنيت** وفريقه الطبي من التبشيريين في الساحة العامة بمدينة «مسامهولي» عاصمة مدينة الساحل الشمالي، حضرها الكبار ذوو الشأن وسفراء الدول المعنية والمسؤولون القمريون.

كانت ترتيبات الحفل قد تمت باتفاق العائلتين، عائلة **جعفر** وعائلة **مونامينة**، لتكريم الدكتور **برنيت**، والإعلان عن الزواج الكبير في مناسبة واحدة ملخصًا استثنائيًّا لأسبوع العادة، بتكلفة مالية تركز على المسؤولية الاجتماعية في التعليم والصحة العامة...إلخ حضرها رؤساء الشعاب ذوو الشأن الذين دُعوا لحفلة التكريم. كان جعفر يقضي بعض الوقت في شواطئ برج النبي مع بعض أصدقائه وبعد رجوعه إلى بيت مونامينة، وهنالك فوجئ بأصوات نساء عائلته، وقبل أن يسأل عن سببها، قالت مونامينة، إنهن جئن لاستكمال ترتيبات الزواج الكبير، وأنه بدءًا من اليوم سيصير هو الرجل ذا الشأن في دارها.

وظهرت **موناعرفة** بين نساء عائلة جعفر، وما إن شاهدت أخاها حتى أحاطته بذراعيها، احتضنته أمام الجميع، بملامح تشي بانفعالات ومشاعر مختلطة، وبدا أنها انتظرت حتى خرجت مونامينة من الغرفة، لكي تهمس في أذني أخيها ببضع كلمات لم يسمعها أحد غيره، قالتْ:

- **اليوم تتحول مظاهر الطبيعة من أجلك، تيارات المحيط، والرياح والسحاب والنباتات، كلها تباركك لكي تصير رجلًا ذا شأن.**

وكشفت **موناعرفة** عن ورقة صغيرة مكتوبة بخط يد أمها المتوفاة منذ سنوات طويلة، وفتحتها أمام عينيه، وأخذت تقرأ بصوت يهتز مضطربًا بالانفعالات:

«مونامينة ملكة جعفر، هي ابنة المرحوم خالك غير الشرعية، صار اسمُها على اسمك منذ الشهر الأول من وجودها في رحم والدتها في الغربة، من أجل مصلحتها، حكمتْ جدات ديار العائلتين بالستر وإخفاء الأمر منذ كنتَ أنت في سن الخامسة، ها أنت تصير حامل لقب الخال وحافظ سرّ العائلة، وصرت في مقام الأبطال، لأنّك تحافظ على وجه العائلة واسمها منذ صغرك».

مسح **جعــفر** دمــوعًا سالت على وجــنتي أخته بعد أن فرغـت من القراءة، مـحاولًا استيـعاب فحوى الوصــية التي ظلت أخته تحملها كل هــذه الســنوات دون أن تكشــف عما بداخلها، تنتــظر هــذه اللحظة

التي يجمع فيها القدر بينه وبين ابنة خاله غير الشرعية **موناعرفة**، حاول استيضاح الأمر، وحين أشاحت موناعرفة بوجهها بعيدًا، سألها:

- **ماذا الذي يدور يا ست الدار؟**

قالت موناعرفة:

- **خلال الأسبوع الذي شهد كارثة الطائرة، التقيتُ بمونامينة ثلاث مرات متتالية لتهيئة المناخ، لكي نصل إلى هذه اللحظة، كي تصير قمريًّا بحق كما تمنى أبوك رحمه الله، وكما تضرّعنا إلى الله من أجلك، كي تتخذ مكانك بيننا وتنتمي إلى «الأغلبية المحصّنة»، ولكي تحقق وصية أمّك بالزواج بابنة خالك التي لا تعرف حقيقة نسبها.**

في هذه اللحظة ظهرت مونامينة من جديد تحمل كوبًا من مشروب ساخن قدمته لموناعرفة بينما كانا لا يزالان يتحدثان، فبادرتها **موناعرفة** بابتسامة عطوف، وتحسست شعرها المنسدل في حنان. حاول جعفر أن يبدو في صورته المعتادة، كي لا ترتاب مونامينة في شيء مما دار بينه وبين أخته، فطلب أن تبدأ في ترتيب ثيابه بحسب ما يقول «المرسوم الشفهي المصدق عليه بإجماع القمريين»، ففعلتْ **موناعرفة**، وأخرجت الملابس وتأكّدت من ملاءمتها للعريس، وخرجت باكية من جديد. لحقتْ بها مونامينة، واحتضنتها. قالت:

- **اليوم أصبحنا سيدتي العائلتين اللتين دفنتا خصلات شعرهما في الأراضي المقدسة معًا في سنّ بنات العادة من أجل المحبّة الدائمة، وببهجتنا المعتدلة وجنونها كبحر المحيط، سنحمل على عاتقينا وحدةَ العائلة كما خططنا معًا دائمًا..**

وخرج **جعفر** سريعًا من غرفة الضيف الدائم إلى سيارة الدكتور خال عروسه، ليتجه معه إلى الساحة العامّة، وفيما تتحرك السيارة باتجاه الساحة العامة، كان جعفر شارد الذهن يلتزم الصمت، وحين أقبلا على الساحة، قال الخال:

- **عليك أن تتبع توجيهاتي، وتنفذها على طريقتنا القمرية، كما فعلتَ في أسبوع الكارثة، كي نتجنّب المعوّقات التي يضعها المتزمتون ذوو الشأن، لقد بدوتَ كبطل ميداني ونجحتَ في رفع معنويات الجميع في هذه الكارثة، في وقت صار فيه وجود الأبطال نادرًا..**

التقط **جعفر** نفسًا طويلًا وزفر الهواء خارج نافذة السيارة، وتعهّد للخال بأن يظهر في أبهى صورة في الساحة العامة مهما كانت الظروف.

نــزل مــن الــسيارة فور توقفــها على مــشارف الســاحة العامة، فتنامى إلى مســامعه صــوت الميــكروفون يذكر اسمه ويــعلن عــن

قدومه بعد اسم الخال. تقدّم نحوهما طفلان يحملان طوقي زهور مميزين من ورد الإيلانج لانج والياسمين، فابتسم ابتسامة هادئة وانحنى بجذعه أمام الطفل الأول ليسمح له بأن يضع طوق الزهور حول رقبته، واتخذ مكانه في الصف الأول إلى جوار الخال والدكتور **برنيت**.

وبعد تلاوة آيات من القرآن، ألقيتْ كلمةُ الترحيب من أعلى منصة، ألقى بعدها الخال كلمة مختصرة شكر فيها الجميع ورحب بالحفاوة التي استقبل بها، ثم صعد الدكتور **برنيت** ليلقي كلمة تحدث فيها نيابة عن فريقه الطبي مرتديًا، جبّةً وشالًا، وعلى رأسه طاقية مطرزة بكلمات البسملة من خيوط الكتان، وتحت الجبّة جلابية من الكتّان يدوية الصنع، وترجمها «سوجوو» الذي كان يعمل بالإعانة الإنسانية مع الطائفة التبشيرية في جزيرة زنجبار منذ سن باكرة، حتى جاءت كلمةُ مندوب الاتحاد الدولي لرابطة مراقبي الحركة الجوية، والذي بادر بطلب الوقوف دقيقة حدادٍ على أرواح من فقدوا في الحادث الأليم، ثم أعلن أن الاتحاد الدولي لرابطة مراقبي الحركة الجوية حزين لوقوع الحادث، مؤكدًا أنه على الرغم من وقوع الكارثة وفقدان أرواح من كانوا على متن الطائرة، إلا أن حوادث الطائرات تظل هي الأكثر أمنًا إذا ما قورنت بحوادث وسائل الانتقال الأخرى، ووعد باتخاذ إجراءات تضمن سلامة وانتظام الملاحة الجوية، والتعاون مع دول المنطقة على مستوى الفنيين في الطيران المدني من أجل ضمان تنفيذ الحلول الفنية، وتقديم المساعدات والمشورة في تطوير نظم الأمن.

وأخيرًا صعد إلى المنصّة عمدة كبار الجزيرة وخطب في الجميع:

- **اليوم نترحّم على الأموات، وندعو الله بالشفاء للمصابين، ونحتفل بالدكتور برنيت وأعضاء فريقه الطبي الذين يجلسون بيننا اليوم كمواطنين قمريين، في ملابسهم وعاداتهم، واليوم أيضًا نكرّم البطل الميداني جعفر شيخ أحمد، الذي استطاع أن يجعل الحبّ بداخله أقوى من الإساءة التي تأتيه من الضيوف العابرين في الجزر، فهكذا يكون الرجل ذو الشأن في الجزر القمرية... اليوم تجتمع عائلة «مْفاومي» مع عائلة «مْداهوما» في تلاحم محمود، لكي يصير جعفر شيخ أحمد مْفاومي صاحب الشأن في دار مونامينة ملكة جعفر مْداهوما، هذه هي عادتنا، أن تستضيف العائلات الكبيرة الأصيلةُ الأبطالَ ليصبحوا ضيوفًا دائمين ذوي شأن في ديارهم.**

تنتهي كلمة الرجل، ويشرع القائمون على الاحتفال في توزيع مظاريف بيضاء بداخل كل منها مبلغ مالي كتبرع لصناديق المدينة والقرية وبعض المشاريع الأخرى مثل جامع القرية والمدارس وقاعات المناسبات وتحسين الطرق وبناء المستشفيات.

10

صار جعفر رجلًا ذا شأن، يبحث دائمًا عن السبل التي تكفل لعائلتيه العيش في انسجام تام، يحمل أفراد كل عائلة الود والخير لأفراد العائلة الأخرى، ولا يسمح لأي منغصات بإفساد العلاقة بين أي منهم.

ظل جعفر يفكّر في وسيلة تساعده على اتخاذ مكانة أكبر في المجتمع، تكفل له أن يكون مصدر فخر للعائلتين، وفي الوقت نفسه يدخل السعادة على أهل الجُزر، بعدما صار واحدًا من أبنائهم بكل جوارحه. وبينما تمر الأيام هادئة وادعة، لاحظ خروج الشباب والفتيات في الجزر كافة في أيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري، تمامًا بعد غروب الشمس وانسدال الليل، يخرج الجميع إلى الشواطئ المحيطية للاستمتاع باللهو فوق الرمال. وعلم أن تلك هي الأيام التي يطلق عليها القمريون الأيام البيض، حيث يضوي نور القمر المكتمل ويتلألأ، كأنه مصابيح منثورة في كل مكان، فيحيل الليل نهارًا مشرقًا.

قرر جـعفر أن يـستخدم هذه الأجـواء الرائـعة، وأن يســتخدم مــعرفته القديمـة وخبرته بالبــطولات الرياضــية، وأن يســاعد الــشباب

والفتيات على المشاركة في نشاط مفيد لأبدانهم وصحتهم النفسية. أعلن عن تنظيم مسابقة رياضية في كرة القدم، يشارك فيها من هم بين سني السابعة عشرة والثامنة عشرة، في هذه البقعة على شاطئ مرآة القمر في مدينة الانفتاح، واستقبل الشباب والفتيات إعلانه بسعادة غامرة، وسارعوا بالتسجيل للمشاركة، وبدا جعفر رجلًا بالغًا واعيًا يأخذ على عاتقه أمور الناس واهتمامات الشباب، وصار أول من يفكر في شأن رياضي عام خاص بهم.

تكوّنت أربعة فرق رياضية من الذكور، يتكون الفريق الواحد من سبعة لاعبين ومن ضمنهم الحارس، ومن ثلاثة إلى خمسة لاعبين احتياطي يتناوبون، فليس هناك عدد معين للتبديل في هذه الدورة في كرة القدم الشاطئية بمدينة الانفتاح، يدير المباراة ثلاثة حكام؛ اثنان على أرض الملعب، وواحد خارجه وحين يتعرض اللاعب لخطأ، تنفذ ضربة حرة مباشرة من قبل اللاعب الذي تعرض للخطأ، البطاقات الصفراء والحمراء موجودة، فعندما يتلقى اللاعب بطاقة صفراء يخرج من الملعب لمدة دقيقتين، ويلعب الفريق بستة لاعبين، أما عند تلقيه بطاقة حمراء، يخرج اللاعب بشكل نهائي، ومثلها تكوّنت فرق الفتيات، لكن فرق الفتيات كانت فرقًا للتشجيع ومؤازرة اللاعبين، فلم تكن إحداهن قد مارستْ لعبة كرة القدم من قبل، بل وجدن الفرصة سانحة في

التشجيع لممارسة رغبتهن في الصياح والصراخ وإعادة تدوير ما يخبئنه في صدورهن من كبت لحريتهن المسلوبة. أقيمت مباراتان على الشاطئ الرملي الأبيض بعد تمهيد الأرض وتخطيطها، كأول بطولة رياضية في الجزيرة. وعاشت الفتيات تجربة مشاهدة المباريات باستغراق تام، وشاهدها الشبان الذين لم يشاركوا في اللعب، وإنما بمساندة الفريق الذي ينتمي إلى جزيرتهم.

وجاءت المباريات قبل النهائية في ذروة اشتعال الضوء على صفحة القمر، فأتاحت لجمهور المشاهدين رؤية جلية مبهجة، وبينما كان الصخب مشتعلًا فوق ملعب الشاطئ، كانت السلاحف المحرشفة وتلك الخضراء تضع بيوضها فوق الرمال، وتعود للغوص في مياه المحيط إلى جوار أسماك السيلاكانت أقدم مخلوقات البحار. إلى أن حان موعد المباراة النهائية، وفاز فريق جزيرة **(الكبرى)** طالب اللاعبون بأن يقوم **جعفر** نفسه بتسليمهم كأس البطولة، تكريمًا له واعترافًا علنيًّا أمام الجميع بتقديرهم له كرجل ذي مكانة في نفوسهم، ولم يثر مطلبهم ذاك حفيظة لدى مندوب مؤسسة الرياضة الحكومية، بل شاركهم الأخير رغبتهم تلك اعترافًا منه كذلك بجهد **جعفر** الذي لا ينكر، صعد جعفر على المنصة، كانت المنصة قاربًا قديمًا متقاعدًا على أطراف الشاطئ، ونقلوه الشباب مقلوبًا وغرسوه في الرمل، حتى أصبح منصة آمنة لوقوف جعفر أعلى من اللاعبين، لحظة تسليمهم الكأس. وأسلم إليه الكأس الذي أُعد مسبقًا لهذه المناسبة ليقوم بتسليمه. صعد جعفر منصة التتويج للقيام بالمهمة خجلًا، مضطرب المشاعر،

بينما كانت تتطلع إليه زوجته **مونامينة** بعيون دامعة كأن زوجها هو من أحرز البطولة، وصعد لتسلم الجائزة!

احتفل الفريقُ المتوّج بجائزته، في ذات الأجواء الصاخبة، وأخذ الناس ينصرفون شيئًا فشيئًا، وحين همّ **جعفر** بالتوجه نحو السيارة وإلى جواره **مونامينة** وبعض من أصدقائهم، لمح من بين جموع الناس وجهًا مألوفًا لرجل أشيب نحيف، في نحو الستين، يبحث بعينيه الزائغتين في وجوه الناس، ويتنقّل بينهم مضطربًا حائرًا، أشار جعفر إلى مونامينة يخبرها أنه سيغيب قليلًا وسيلحق بها لدى السيارة.

ومضى جعفر إلى حيث رأى الوجه المألوف، حتى أصبح قبالة الحاج **موميني ممادي**، الصيّاد القديم في «عُمان» والذي كَفّ عن ممارسة الصيد منذ زمن بعيد، والذي كان أحد أقرب أصدقاء أبيه قبل موته، بل كان الحاج **موميني ممادي** آخر من شاهد وجه أبيه وأسبل جفنيه بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها **جعفر** صديق أبيه منذ الحادث البعيد. قيل إن الرجل اختفى بعد وفاة صديقه حزنًا عليه وحسرة على ما كان بينهما، ولهذا لم يعثر عليه جعفر لوقت طويل بعد الحادثة.

ألقى **جعفر** عليه السلام وأخذ يده بين كفّيه، بينما كان الحاج **ممادي** يتفرّس في ملامحه كأنه يتعرّف عليه للمرة الأولى، بدا

الرجل في عيني جعفر مسنًّا ضعيف النظر، يتساند إلى عصا من الخيرزان، أعلن له عن نفسه، فاحتضنه الرجل وأخبر جعفر أنه جاء باحثًا عنه، بعد أن بلغته أخبار هجرته من عمان وعودته إلى الجزر، لكي يبلغه بكلمات أبيه الأخيرة، التي رأى ممادي أنه لا حاجة لإعادتها على أذني **جعفر** بعد أن قام الأخير بتنفيذ ما فيها دون أن يعلم بوجودها، فقد عاد جعفر إلى موطنه واستعاد زمام عائلته واتخذ مكانًا لائقًا بين أهله.

أخذ **جعفر** بيد الحاج ممادي وأصر على اصطحابه إلى داره، وفي الطريق حكى ممادي ما رآه من تلك الحادثة التي أودت بحياة أبي جعفر، والتي اعتزل بعدها حياة البحر والصيد، وظل شبح ذلك النهار يؤرّق فكره وينغص عليه أيامه لزمن طويل،

قال الحاج **موميني ممادي**، إن أبا جعفر قبل موته في تلك الحادثة بفترة قصيرة، قد لفت انتباههم إلى وجود سمكة سيلاكانت عملاقة في مياه البحر، قريبًا من مواضع الصيد، وقد كان أبو **جعفر** هو المسؤول عن سطح السفينة التي كان يعمل عليها الحاج **ممادي** إلى جواره. وكانوا يعرفون أن ضربة واحدة من ذيل هذه السمكة العملاقة، أشدّ قوة وتدميرًا من مروحية الحاكم الاستعماري التي تشيع حالة من الرعب في هبوطها وإقلاعها. وحين نبههم أبو جعفر إلى وجود السمكة طالبهم بالتأهب والجاهزية، كأنهم مقبلون على تيارات محيطية تدفعها الرياح العاصفة نحو هيكل السفينة، وكانت حركة السفن القوية

المجاورة تدعو للشك والخوف. تدهورت الحالة الجوية وصارت الرؤية ضبابية واشتدت الرياح.

- **لم تكن الحالة مألوفةً لنا على الرغم من خبراتنا بأجواء البحر وتحولات الطقس. حينها اتجه والدك إلى مؤخرة السفينة، ففوجئ بحركة غير طبيعية أسفل الدفة الأمامية، كانت السفينة في مهب الريح، تتحرك كأنها وريقة شجرية فوق غصن مكسور، أصبحت خارج السيطرة، رجّحنا أن شيئًا أصاب الدفة وأعطبها، فأعلن أبوك أنها سمكة السيلاكانت العملاقة هي من أصابتها. أصبحت السفينة على وشك الغرق، ولم يكن هناك من سبيل لإنقاذها إلا بربط الحبل الأساسي لنستطيع التحكّم في الدفّة المسكورة، وعلى الرغم من خطورة الموقف، لم يتردّد والدك في النزول بنصف جسده إلى الماء محاولًا ربط الحبل. كان يعلم أن السمكة تتربّص بمن سيجرؤ على الظهور مرة أخرى، لكنه لم يخف ولم يؤثر السلامة، كان يقول إنه ما دام رئيسًا للسفينة فعلى عاتقه سلامة الجميع، حتى إن كان ثمنها روحه نفسها. وما إن شاهدته السمكة العملاقة يدلي جسده داخل الماء، حتى أطبقت فكيها على ذراعه وكتفه وجزء من قبته. قاوم سقوطه في الماء بقوة جبارة، فوقع على ظهره فوق سطح السفينة.**

وقال الحاج ممادي إن والد جعفر قد نال الشرف والفخر، وصار قصة أسطورية يتداولها البحارة والصيادون، فقد كانت إصابته إصابة نادرة لم تقع لأحد من قبله، وكان ما فعله يفوق قدرتهم على الاستيعاب. أدى الرجل واجبه، بل تحمّل قسوة الإصابة ليومين كاملين قضاهما بين جدران المستشفى في محاولة لإنقاذه، لكن الإصابة كانت أكبر من جهود الأطباء، فتوفي وتم تشييعه في موكب مهيب.

وحين وصل جعفر والحاج ممادي إلى المنزل، وبعد ضيافة كريمة من ست الدار، أخذ ممادي يتحدث عن ذلك النوع النادر من أسماك السيلاكانت، قال:

- السيلاكانت أحد أقدم الكائنات البحرية، وهي أكثر الأسماك التي تتنوع في أسمائها، فمن الناس من يطلقون عليها، السيلاكانت أو الرابط مفقود أو سمكة ما قبل التاريخ أو المتحجّرة الحيّة. كانت على وشك الانقراض بعد تغير المناخ وارتفاع درجة الحرارة، حيث انجرفت نسبة كبيرة من هذا النوع في مدة قصيرة من الشقوق الصخرية والكهوف التي تحيط بالجزر الأربع نحو الموت، والأسراب التي نجت من الموت أخذت تتغذى على أنواع الأسماك الأخرى والنباتات التي تنمو على وجه المياه بعد تساقط الأمطار، تستهلك الأكسجين الذائب في المياه، وتفرز سمومًا تؤدّي إلى موت

هذه النباتات، بعدها تعود إلى قيعان البحر، وتختبئ داخل الصخور والكهوف البحرية، تبقى «السيلاكانت» صلبة قوية كشاهد على تاريخ الحياة البحرية في بحار الجزر، تقاوم جنون تغيرات المناخ وتقلباته، وقد تحوّلت بسبب استجابة تركيبتها الجينية الفريدة إلى سمكة تنتج سلالة جينية نادرة من الزمن القديم، فاتخذت شعارًا على غلاف «جواز السفر» القمري كرمز للهوية والأرض.

11

تطلّع جعفر إلى تأسيس جمعية أهلية تتخذ على عاتقها تشجيع مؤسسات جزر القمر لاتخاذ الإجراءات المناسبة الكفيلة للحفاظ على سمكة السيلاكانت البحرية الكبيرة المهددة بالانقراض، خاصة بعد انتشار الصيد الصناعي الذي يجوب بحار الجزر رغم ما يشكله من أخطار على كائناتها البحرية النادرة، ولم تمر سوى أسابيع قليلة على تأسيس الجمعية حتى تلقى دعوةً من أحد المراكز الطبيعيّة الكبرى للبحث العلمي، لحضور مؤتمر عالمي يهتم بنشر التوعية في ما يتعلّق بالتلوث الناجم عن المخلفات الصلبة، وزيادة درجة حموضة مياه البحر في الجزر القمرية، وهي الحموضة التي تتسبب في تدمير الشعاب المرجانية والأصداف البحرية، وفي مشاركته ألقى جعفر كلمة مختصرة حول الخلل الذي أصاب الأمن البيئي، والذي تسبب في نشر أجواء ملائمة لنمو وتكاثر أنواع من الأسماك الصغيرة التي تهدّد التوازن البيئي في الجزر، وهاجم أصحاب السفن السياحية الكبيرة التي تعتدي على الشواطئ القمرية، والتي تستخدم النفط الثقيل الذي يحتاج بدوره إلى وقت طويل للتحلّل حين يحدث التسرُّب النفطي. وطالب برفع القيود عن الصيد ذي المردود التجاري المنظّم الذي لا يضر بالبيئة البحرية، لكي يضمن استمرار تدفق

العملة الأجنبية إلى بلاده، وطالب كذلك أن يبحث المختصون في مسألة انقراض أنواع معينة من أسماك السيلاكانت.

قرر المركز البحثي العالمي المنظم للمؤتمر أن يتيح له كل الوسائل التي تساعده على وضع قواعد للصيد البحري لأنواع الأسماك النادرة في الجزر، وتشجيع الصيد التقليدي المنظم ومنع الصيد الجائر الذي يؤثّر في دورة حياة السيلاكانت، ويحد من قدرتها على إنتاج أجيال جديدة أخرى بما يحفاظ على التنوع الجيني لها.

عاد جعفر إلى الجزيرة دون أن يعلم أن ما عزم على القيام به للحفاظ على التراث البحري في الجزيرة سيكون سببًا في عداء مستحكم بينه وبين المرتزق الفرنسي **بوب دينار** وأن هناك صدامًا مباشرًا في انتظاره بعد عودته، وحين أبلغ **مونامينة** باعتزامه على خوض هذه الحرب حتى نهايتها، شعرت بالخوف، وطوقته بذراعيها، واتخذت سمت الجدة الحكيمة الناصحة، وطالبته أن يكون كالقارب الخشبي البدائي ذي الشكل الانسيابي، الذي يسير معتمدًا على توازن الشخصين الجالسين في منتصفه في ثبات وهدوء، حيث لا يتحرّك أحدهما إلى الجهة الأخرى من القارب إلا بالاتّفاق مع زميله الآخر، لكي يعكس بدوره اتجاهه، دون استخدام المجاديف أو الأشرعة.

وتلقى جعفر رسالتها المبطنة، وأدرك مقصدها، قرّر ألا ينغمس في قضية شخصية لا طائل من ورائها، وأن يعمل على تحقيق

أهدافه دون الانخراط في صراع يقيّد حركته. فبدأ يعمل على إعادة الحياة إلى صناعة القوارب التقليدية، بالاعتماد على نظام قطع أشجار الغابات بوتيرة تُمكّن الطبيعة من أن تستدرك الأمر بإنبات أشجار بديلة على نحوٍ تتجدّد معه الغابات.

كان المرتزقة الفرنسيون يسيطرون على الجزر كافة بكل مقوماتها، وكانوا يعتبرون شمال العاصمة هو منتجع استجمامهم، يقضون به إجازاتهم الطويلة وعطلاتهم القصيرة، من شاطئ إيساندايا شمال العاصمة، جنوب القاعدة العسكرية «كنداني» وحتى شاطئ برج «النبي» في مدينة ميسامهولي. والتي تحتوي على استراحة النخبة الحاكمة، بين الغابات الخضراء والأراضي الرطبة والجبل الذي يقسم الشاطئ إلى نصفين متشابهين، والكهوف الطبيعية والشعاب المرجانية الصلبة والأسماك الملونة النادرة. لا يبلغ أسماعهم سوى تغريد الطيور وهدير الأمواج. يغشاهم ضوء القمر والنجوم البراقة.

هكذا انتبه المرتزقة الفرنسيون بأوامر القائد بوب دينار في لحظات جنون الأمواج، بضرورة اللجوء إلى مكان آمن، لتخفيف تكلفة المخاطر، فاتجهوا نحو الغابات حاملين إنسانيتهم على أكتافهم وفرض نظام القطع المنظم للأشجار الذي يحافظ على خصوبتها بدرجة حرارة ثابتة تهيمن على مناخ العيش المشترك مع الحيوانات البرية القمرية فاكتسبوا معاشرة القمريين

وأصبحوا أصهارهم بدم العادة القمرية، لأن الخلايا الجذعية في الجزر المكونة لدم العادة، هي أصل خلايا الدم بجميع أنواعها في الجزر الأربع، خالية من أولياء الدم الذين يقتلون القاتل نفسه أو ينتقمون من أقاربه نتيجة للجريمة أو نتيجة الأمر المعيب، يقول القمريون إن دم الضحايا لا يسمح للموت القاتل الذي أصبح كالمرأة التي تبحث عن المشيمة الساقطة بلا جدوى في الشهر الرابع كهمزة وصل بينها وبين الجنين، وأنّ الثائر لا عوض عليه لأنه عند الله المحبة، فصار عادة، في اتباع أولادهم هيبة وحكمة الخال المتكلم والمروج للرداءة المقبولة في وعي العامة، وعموم القمريين في الجزر وخارجها باستمرارية الظهور حتى تفرز علامات جمالية في الجسم العائلي كخلايا الصبغة المتفاوتة من عائلة لأخرى حسب الكمية الموجودة، التي يعتمد عليها الخال في تلوين وجه العائلة، بإخفاء بقع الحياة العائلية التي تمكنه من التحكم في الهرمونات العائلية، لتقوية العائلة في ساحة العامة بما يتماشى مع العادة، فيصبح هو العنوان والفخر والبهجة كحبّة الخال[21] عند نخبة نسوة الديار، فهي عادة قمرية أصيلة.

21- الشامة، أو الحسنة البارزة على الوجه.

أول رواية عربية من جزر القمر وعنها

رواية شديدة التميز والخصوصية، كتبت بقلم محب لبلاده لدرجة العشق. يرصد فيها تقاليد مُغرقة في المحلية بكل دقة، راصدًا تفاصيل لا نعلم عنها شيئًا.

جزر القمر؛ في قلب المحيط الهندي، وعلى الجهة الجنوبية من خط الاستواء، تقع جزر القمر شرقي خط غرينتش، تغطيها المسطحات الاستوائية من أشجار مثمرة، ونباتات نادرة فوّاحة، وقمريون يغمسون أقدامهم في مياه المحيط..

نعيش مع أبطالها رحلتهم ونرى قواعد الزواج الكبير، ونرى الأجداد والآباء والأحفاد، في مجتمعهم المميز المعجون بحب بلاده بكل ما يحويه.

رواية شديدة الإنسانية مكتوبة برهافة ورصد شديد الدقة، كأنه كاميرا ترصد بتأنٍّ كل ما يدور حولها لتجعلنا دون أن ندري نتورط مع أبطالها كأننا نعيش معهم.

أوادي حافظ: ولد في مدينة ميسامهولي شمال عاصمة جزر القمر 1977، درس في المدرسة العليا للصحافة في مدينة ليل بفرنسا كما درس قانون الأعمال الدولي في جامعة سوربون بانتيون، يعيش في القاهرة، ويعمل في مجال الإعلام باللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية والسواحلية.



ISBN 978-977-821-256-3

9 789778 212563

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET